٢٢٧

HARLEQUIN®

روايات احلام

لعنة المال

ريبيكا ونترز

WWW.ELROMANCIA.COM
مـــرمـــوريـــة

لعنة المال

وقع البليونير دومينيك جيرود في غرام هانا كار منذ اللحظة التي رآها فيها. وعندما اكتشف أن في عهدتها طفلة، عرض عليها الزواج. ولكن قبل العرس، اقتنع دومينيك أن هانا تريده لأجل أمواله فقط.

هل بإمكان هانا أن تجعله يصدق، لأجل الطفلة ولأجلهما معاً، أنها تزوجته حباً به لا طمعاً بماله؟

www.RomanceClub.com
مـــرمـــريـــة

لبنان : ٢٥٠٠ ل.ل.	البحرين : ١ دينار
سوريا : ٧٥ ل.س.	السعودية : ١٠ ريال
الأردن : ١.٥٠ دينار	مصر : ٥ جنيه
الكويت : ٧٥٠ فلس	المغرب : ١٥ درهم
الإمارات : ١٠ دراهم	تونس : ٢ دينار
قطر : ١٠ ريال	عُمان : ١ ريال

ISBN 9953150524

١ ـ أين الملاك؟

وصل دومينيك جيرود إلى المتحف الصغير، وكانوا قد أخبروه بأنه سيجده على بعد اثني عشر ميلاً خارج «لارامي» يومينغ. بدا وكأن حافلة مكتظة بالسياح حاصرت المكان.

أوقف سيارته المكشوفة، إلا أنه لم يخرج منها على الفور. وفضّل أن ينتهز الفرصة ليتأمل الطبيعة في ذلك المساء الجميل من شهر حزيران.

كان ثمة تناقض كبير بين جمال هذه الطبيعة الوعرة وبين ناطحات سحاب نيويورك حيث يعيش وبين منطقة «فنس» الفرنسية حيث ولد. لذا، صعب عليه التسليم بأنّه ما زال على الكوكب نفسه.

ولأنه ترعرع في بلاد غنية بأشجار البرتقال والياسمين ونباتات اللافندر، أنعشته روائحها العطرة الممزوجة برائحة نبات المريمية العابقة في هذا الجو الجاف. شعر بالحيوية تحت تلك السماء الزرقاء الموشحة بالغيوم والتي غابت عنها الشمس منذ فترة قصيرة خاصة وأنه ولد وترعرع في تلك البلاد المشمسة. علم أنه لن يتمكن من التحدث إلى الشخص الذي يدير ذلك المكان والذي سيطلعه على اسم المالك قبل بعض الوقت. لذلك، قرر أن يخرج عن الطريق كي يتفحص العقار القائم خلفه. كان بحاجة إلى قطعة الأرض تلك كي يصل العقارين المتجاورين ببعضهما بغية استكمال المشروع الذي تكفل به منذ السنة الماضية. هذا المشروع الذي قد يستغرق عدة سنوات أخرى على الأقل. فقد تملكته رغبة شديدة في تسيير قطار سريع من الساحل الشرقي إلى الساحل الغربي للولايات المتحدة وذلك منذ سنوات.

أوشك على تحقيق ذلك بالفعل. ويعود الفضل في ذلك إلى تلك السلسلة من المحاضرات الهندسية التي حضرها في انكلترا احتفالاً بإنهاء «نفق القناة»، ذلك العمل الفريد من نوعه.

من لا يملك خيالاً واسعاً، كان ليستبعد فكرة هذا المشروع. لكن انهاءه سوف يثبت في ما بعد أنّه كان على خطأ.

أثناء ذلك المؤتمر البالغ الأهمية، تعرّف إلى أميركيّين. أحدهما عالم جيولوجي من نيويورك ويدعى «آليك جارمان»، والثاني مهندس من «سان فرانسيسكو» واسمه «زين برودريك»، وكانت أحلامهما مماثلة لأحلامه.

كان كلٌّ منهما منشغلاً للغاية نظراً لبرنامج العمل الحافل. وكان الثلاثة قد عقدوا النية على البقاء يوماً واحداً لحضور المؤتمر، لكن عندما سمع الإثنان الآخران بفكرته، أجّلا إلتزاماتهما الأخرى.

ومكثوا ثلاثة أسابيع في جناح في فندق يعملون ليلاً نهاراً على العراقيل التي تحول دون تنفيذ المشروع. فبات تنفيذه حلمهم وشغلهم الشاغل.

بما أن دومينيك لم يعد وحيداً في هذا المشروع، أخذ يركز اهتمامه على جمع المال وانتقاء الأرض، متعجباً في الوقت نفسه، من النبوغ والسرعة التي وضع بها الآخران مساهمتهما العلمية على الورق. لقد شكّلت تلك الأسابيع نقطة التحوّل في حياتهم جميعاً، فلم يخرجوا من هذه التجربة الصعبة مجرد زملاء بل أصدقاء حميمين أيضاً.

ودفعته تلك المصادفة التي جمعته والأميركيّين في لندن، إلى القيام بالدّور المكلف به في سبيل تحقيق حلمهم. دار بسيارته حول المتحف، فاكتشف خلفه مخزن غلال صغير وعربة من النوع الذي يجره حصان واحد، وبالقرب منها سيارة زرقاء صغيرة. كما رأى حصاناً كستنائي اللون مسرجاً يقف قرب زريبة للماشية ويأكل القش بصوت مسموع. ولم ير أي أثر لانسان على ذينك المبنيين، فقد كانت أرضاً عذراء تغطيها الحشائش المريمية والزهور البرية. بدا المكان موحشاً، أو ربما هذا ما شعر به. فقد كان هذا الشعور صدىً لشيء في نفسه يزعجه. لكنه لم يهتم بتحليل السبب.. سيّما أنّه كان

منشغلاً جداً بعمله.

طرد هذه الأفكار من ذهنه وهو يتجه نحو مرتفع يشرف على النهر، كان قد رآه من بعيد.

عندما وصل إلى القمة، كان منشغلاً في التخطيط لمستقبله، فلم ينتبه إلاّ عندما أخذت سيارته في النزول. وكادت تصطدم بصخرة متوسطة الحجم، إلا أنه انحرف ليتجنبها، ثم أخذ يلعن عندما اصطدمت العجلة اليمنى الخلفية بقطة. بعد ذلك لم يشعر سوى أن العالم أخذ يدور من حوله، ثم رأى أضواء تبهر عينيه.

قطبت «هانّا كار» حاجبيها عندما تلاشى صوت حافلة السياح ليحل مكانه صوت بوق سيارة يزعق بدون توقّف.

أنهت تغيير «حفاظ» ابنة أختها، ثم خرجت من المتحف لترى إن كانت تستطيع رؤية السيارة. وإذا بها تدرك أن صوت البوق قادم من جهة النهر فتنبهت إلى وجود شخص في أملاكها. لم تكن الطريق مجهّزة لمرور السيارات بل مخصصة للمشاة. يمكن سلوك طريق العربات الفرعية، وإلا سيجد القادم نفسه في مشكلة حقيقية. ولسوء الحظ، لم يكن هناك غيرها على مسافة عدة أميال.

وخطر ببالها أن تتصل بالإسعاف إلا أنها أدركت أن سيارة الإسعاف قد لا تصل قبل ربع ساعة، ففضلت الذهاب بنفسها على الحصان لاختصار الوقت. ولكن الزعيق المستمر للبوق أقلقها مما دفعها إلى إعطاء الطفلة لعبتها المفضلة وهي تخاطبها قائلة: «أليزابيث، لم أتركك وحدك قط، لكنني مضطرة إلى ذلك الآن. أرجوك لا تبكي وسآتي بسرعة».

تألّمت لتركها وحيدة، لكن لم يكن أمامها من خيار آخر. فلعل الشخص ينزف، لذلك عليها ألاّ تتأخر لحظة عنه.

دعت الله أن يحفظ أليزابيث سالمة، ثم سارت نحو المتحف ومن هناك إلى الزريبة، بعد أن أقفلت الباب خلفها كي لا يدخل أحد ويؤذي الطفلة.

سارت الفرس نحو البوابة، فأمسكت باللجام وقفزت على السرج.

ـ هيا بنا، يا «سينامون» لنرى سبب زعيق البوق.

كانت هانا تألف ظهر الفرس أكثر مما تألف سيارتها، وذلك منذ أن كانت تلك مهرة صغيرة. وصلت إلى المرتفع في وقت قصير، وصرخت بأعلى صوتها عندما رأت سيارة «جيب» منقلبة على الجانب البارز من صخرة مدفونة في الأرض، عند سفح التل. وعلى بعد أقدام منها، رأت رجلاً ملقى على ظهره فوق الحشائش، من دون حراك.

حثّت الفرس على الإسراع. وعندما وصلت، رأت رجلاً في منتصف الثلاثينات من عمره، مرتدياً بنطلون جينز أزرق وكنزة رياضية تبنية اللون. كان طوله يفوق الستة أقدام، ودلّ لون وجهه البرونزي وذراعيه القويتي العضلات على كثرة تعرضه للشمس.

ركعت بجانبه وأمسكت بمعصمه تفحص نبضه. صدر عنه أنين محزن عندما لمسته، ثم فتح عينيه، فبدتا بلون شعره البني الداكن.

وعلى الفور أدركت هانا أنه أوسم رجل رأته في حياتها.

عندما حاول الجلوس، أبقته ممدداً، قائلة: «أرجو أن تبقى مستلقياً لدقيقة. لقد تعرضت لحادث وأخشى أن تكون مصاباً بارتجاج في المخ».

أخذ يتمتم بشيء غير مفهوم، وعاد يجاهد ليقف على قدميه، ونجح في ذلك بعد مشقة. لكنه حين وقف على قدمه اليسرى، كاد يسقط، ولو لم تمسك به هانا لسقط فعلاً. من الممكن أن تكون قدمه أو كاحله قد كُسر، أو لعله كسر الإثنين.

ـ هيا. لا يمكنني أن أتركك هنا. سأساعدك على الصعود على فرسي، اتكىء عليّ.

رغم طول الرجل وقوته البادية، كان بحاجة إلى مساعدتها ليتحرك.

كان طول هانا لا يتعدى المئة وستين سنتمتراً، لكنها اعتادت أن تؤدي دوراً في استعراضات رعاة البقر، في ركوب الخيول الجامحة. كما اعتادت ركوب الخيل طيلة حياتها مما جعلها فارسة ممتازة.

وقد تدرّبت حديثاً على مكافحة النيران في الغابات وعلى أعمال الإنقاذ

ضمن فرقة «الارامي للنجدة». كانت الفتيات المتطوعات الخمسون يركبن معاً خيولهن للنزهات، وكنّ يستدعين للمساعدة عند الطوارىء.

نادت فرسها بصفير فتوجهت سينامون إليها على الفور. وبعد أن عدّلت وضع الركاب الأيمن وجعلته منخفضاً قدر المستطاع، حثّت الرجل الغريب على أن يرفع نفسه مرتكزاً على ساقه السليمة.

وقفت على أصابع قدميها ثم أراحت الساق المصابة فوق ظهر الفرس. لم يصدر عن الرجل أيّ صوت، لكنها أدركت من تغضن وجهه وعبوسه أنه يعاني من ألم مبرح. واعتبرت عدم سقوطه عن ظهر الفرس، معجزة حقيقية لا سيّما أنه كان يعاني من صداع شديد.

امتطت سينامون من الركاب الأيسر، ممسكة باللجام بيد واحدة. وجلست خلف الرجل الغريب، محيطة خصره بذراع، بينما قادت الفرس بالذراع الأخرى.

شعرت حين اقتربت كثيراً من الرجل المصاب، المكتمل الرجولة، بحرارة جسده. وتنشقت رائحة الصابون الذي استعمله أثناء استحمامه. وأحست بالدهشة من أفكارها هذه، فأرغمت نفسها على التركيز على الورطة التي بين يديها. وهكذا اتجهت بهما الفرس نحو الزريبة.

وسرعان ما انحنى الرجل على مقدمة السرج المرتفعة، ولكنها كانت تشعر به يتصلّب مع كل حركة من الفرس، فأخذت تهمس له مشجعة: «المتحف ليس بعيداً من هنا. مجرد دقائق».

سمعت، مرة أخرى، كلمات غير مفهومة تفلت من بين شفتيه. كانت هذه الكلمات تشير إلى ألم الحاد فشعرت أنه بحاجة إلى طبيب في أسرع وقت ممكن.

بعد وقت قصير، ظهرت المباني من بعيد، وبالرغم من زعيق البوق الذي ما زال يخترق ظلمات الليل، توقعت أن تسمع بكاء الطفلة أليزابيث. لكنها شعرت بالارتياح عندما وجدت كل شيء هادئاً.

ما أن توقفت الفرس، حتى انزلقت عن ظهرها، وأسرعت تساعد

الغريب على النزول، ثم أخذت تبحث في جيبها عن المفتاح. وبينما هو متكىء بكل ثقله عليها، فتحت الباب وأخذت تجره إلى أن وصلا إلى سرير مثبّت إلى جدار الغرفة. تهالك عليه وهو يئن من دون أن يفتح عينيه، بينما ظهرت قطرات العرق عند منبت شعره وفوق شفته العليا.

شعرت هانّا بالإرتياح وهي ترى الطفلة نائمة، وتمتمت تشكر الله لسلامتها بعد أن قلقت لتركها وحيدة. لكنها كانت سعيدة لمساعدة هذا الرجل في ورطته.

تملكها القلق بشأن رأس الرجل، فأخذت تفحص جمجمته بأصابعها. كان ثمة ورم صغير في أسفل الرأس تحت شعره القاتم، لكنها لم تجد جرحاً مفتوحاً، إلاّ أنها لم تستبعد احتمال وجود نزيف داخلي.

أراحت ساقيه الطويلتين على الفراش بحذر ورفق بالغين ثم رفعت سرواله الجينز إلى الأعلى بنفس الرفق والعناية وتفحّصت ساقه المصابة. كان الكاحل متورّماً لسوء الحظ، ولكنها لم تستطع معرفة ما إذا كان مكسوراً أم أنّه مجرّد التواء.

من حسن الحظ أنه نام. ألقت نظرة على أليزابيث التي لا تزال نائمة، ثم أحضرت صندوق الإسعافات الأولية، وخلال دقائق، لفت الكاحل بضماد مناسب.

نظرت حولها، فوجدت بطانية لفّتها ثم أسندت إليها الساق لكي تخفف الورم. لو أن لديها شيئاً من الثلج! لم تكن المرة الأولى التي تمنّت فيها وجود طاقة كهربائية هنا لتتمكن من اقتناء ثلاجة.

أثناء قيامها بالإسعافات، كان أنين المصاب يتصاعد، لكنه لم يستيقظ.

مدت يدها تتناول هاتفها الخليوي، وقد سرّها أن الطفلة والرجل الغريب استمرا في نومهما لبعض الوقت، ثم خرجت من باب المتحف واتصلت بسيارة الإسعاف. وبعد نقاش قصير، وافقوا على أن يطفئوا صفارة سيارة الإسعاف عند قدومهم كيلا تزعج المصاب والطفلة النائمين.

بعد ذلك، اتصلت بجيم تورنتون في بيته، هذا الأخير يدير أحد

الكاراجات في «لارامي». وعندما سمع منها ما حدث وعدها بأن يباشر بإصلاح الجيب في صباح الغد الباكر.

وبعد أن أنهت هانا اتصالاتها، أخذت الفرس إلى الزريبة، حيث وضعت لها العلف والماء مستعينة بالفانوس. وربتت على جبين الفرس بعطف ثم تمتمت: «تستحقين جائزة بعد عملك المتعب عند النهر».

فأخذت الفرس تصهل بهدوء متجاوبة معها.

ثم تركت سينامون وعادت إلى المتحف تحمل الفانوس. لم تظن أنها ستحتاج إليه الليلة، ولكن بعد أن عثرت على هذا الرجل الغريب، زحفت الظلمة فوق الأراضي. بدا الفانوس ذا أهمية إذ أنار الطريق أمام رجال الإسعاف ليقوموا بعملهم خصوصاً أنّه لم يكن هناك طاقة كهربائية.

***

عندما فتح دومينيك عينيه هذه المرة، أطلق آهة اكتشف بعدها أنه وحده على سرير خشن في كوخ خشبي. كان الألم في رأسه وكاحله قوياً لدرجة أحسّ معها وكأنه في جهنم.

حاول أن يركز نظراته المتعبة على ما حوله. وعندما استطاع أن يرى الأشياء بوضوح، لاحظ إعلاناً معلّقاً على الجدار فوق قدمه مباشرة، يقول:

مطلوب لنقل البريد على الجياد

فتيان نحيفو الأجساد أقوياء دون الثامنة عشرة

يحسنون الفروسية ويرغبون في اقتحام

الموت يومياً، يُفضّل الأيتام

تقدّم الطلبات قبل ٣/٤/١٨٦٠ إلى «مركز شركة كاليفورنيا للبريد المعجّل».

في البداية، شوّشت هذه الكلمات ذهنه. لكنه ما لبث أن انتبه تدريجياً إلى ما يحيط به وتذكر المتحف. لم يستطع أن يذكر كيف وصل من النهر إلى هنا. لا بد أن شخصاً ما قد أحضره، وإلا كيف يمكنه أن يفسّر ربط كاحله؟ هل حلم بذلك الملاك الرقيق ذي الخصلات الذهبية والعينين الخضراوين

الذي طار به على حصانه؟

عندما حاول أن يجلس، عادت الأرض تدور به، فتأوه بإنزعاج وهو يستلقي من جديد، ثم أغمض عينيه. لكنه لم يستطع أن يطرد من أذنيه ذلك الرنين المزعج.

في ما بعد سمع صوتاً يقول: «إنه هنا».

كان نفس الصوت الذي سمعه من قبل، صوت امرأة أبحّ.

إنه صوت الملاك!

فتح عينيه ليتأكد من أن ما يسمعه ليس من نسج خياله، لكن ولخيبة أمله، رأى رجلاً في مثل عمره تقريباً، يقف فوق رأسه وينظر إليه، بينما أحضر رجل آخر نقالة وضعها بجانب سريره.

ـ ها قد استيقظت. أنا مسرور لذلك، ما اسمك؟

قال وهو يتنهد محبطاً: «دومينيك جيرود».

ـ أنا اسمي تشاد. سمعنا أنك تعرضت لحادث قرب النهر، استرح ريثما أقيس النبض والتنفس، بعد ذلك سوف نأخذك إلى مستشفى «لارامي» حيث يفحصك الطبيب.

قال محتجاً: «أنا بخير».

ـ ربما هذا صحيح، ولكن لديك ورم بسيط في أسفل رأسك، كما أن كاحلك قد يكون مكسوراً، مما يستدعي التصوير بالأشعة.

نادراً ما شعر دومينيك في حياته بضعف جسدي يمنعه من التغلب على وضع لا يريده.

ـ أين الملاك؟

ـ هل تعني تلك التي أنقذتك وأجرت لك الإسعافات الأولية؟

ـ لم أكن أحلم إذن...

ـ مع الأسف إنني مجرد بشر، يا سيد جيرود.

أعجبه صوتها وخصوصاً طريقتها في لفظ اسمه بفرنسية جيدة، فمعظم الأميركيين لا يعبأون بذلك.

ـ اقتربي مني لكي أراك. أودّ أن أشكرك لإنقاذك حياتي.

فقال تشاد ضاحكاً: «في ما بعد، إنها جميلة ولهذا أخشى أن أخطىء في قياس ضغطك. هذا إلى أنني أريدها أن تبقى حيث هي لكي تستمر في إنارة الجهاز لي بفانوسها».

تمتم دومينيك شاتماً، أراد أن يرفع وجهه لكي ينظر إليها ولكنه شعر بدوار عندما حرك رأسه.

قال تشاد متعاطفاً: «كنت على الأوتوستراد منذ قليل وأفهم شعورك تماماً، امنح نفسك أربعاً وعشرين ساعة وستصبح رجلاً جديداً».

وضع الرجلان دومينيك على النقالة.

لم يستطع رؤية المرأة التي سارت خلفهم إلى الباب وودعتهم متمنية له شفاءً سريعاً. وأزعجه ذلك الرنين في أذنيه الذي ازداد سوءاً في اللحظة التي أخرجاه فيها. ومرّت لحظة قبل أن يدرك أن هذا الرنين ليس في رأسه.

ـ يا إلهي.. إنه بوق سيارة.

فقال له تشاد وهما يضعانه في سيارة الإسعاف: «إنه بوق سيارتك الجيب، سرعان ما تفرغ البطارية. سيأتي كاراج تورنتون لأخذها صباح غد، وسنترك كل التفاصيل معك في المستشفى».

مضت لحظة لم يبقَ فيها أمام دومينيك سوى الإذعان لحظّه، ولم يكن يعني ذلك أنه لن يعود غداً أو بعد غد لكي يشكر منقذته بشكل صحيح، فلا بد أنها جميلة كما تخيّلها.

***

في صباح اليوم التالي، فتحت هانّا أبواب المتحف للعمل، فاتجهت نحوها شاحنة كبيرة لقطر العربات، وخرجت تحمل أليزابيث على كتفها، لترشد الرجل إلى مكان الحادث.

ذكّرها ذلك بالإتصال بالمستشفى في ما بعد لكي تسأل عن حالة الغريب ذي الشعر القاتم الذي احتلّ أفكارها منذ الليلة الماضية. ظنّت أنه من سكان «لارامي» ولكنها شكّت في ذلك.

لم يطلب إبلاغ أي قريب أو صديق بحادثته. قد يكون متزوجاً لكنها لم تر خاتم زواج في إصبعه، فبعض الناس لا يلبسون خواتم أو لا يريدون ذلك.

على الرغم من لغته الإنكليزية الممتازة، كان اسمه فرنسياً، كما سمعته يتمتم كلمات بالفرنسية أثناء عودتهما على الفرس من مكان الحادث. حتى في حالة الدوار، بدت عليه خبرة وحنكة بالغتان لم ترَ مثلهما في أي من الرجال الذين عرفتهم في حياتها.

- إنه رجل رائع، يا حبيبة.

قالت تحدّث الطفلة وهي تضعها في عربة اللعب وبيدها «لعبة» تلهيها بها:

- رأيت أمثاله في الأفلام والمجلات، ولهذا أعرف أنهم موجودون، لكنني لم أقابل واحداً منهم شخصياً إلا الليلة الماضية. أيّاً كانت هويته، لن أنساه أبداً.

حتى عيد الميلاد الماضي، كانت هانا في مرحلة التخرج من «جامعة لارامي»، وكانت تخرج مع رجال مختلفين من الجامعة، أبدوا لهفة للتعرف إليها بشكل أفضل. ولكن أثناء الإجازة، سلمتها أختها الأصغر سناً طفلتها أليزابيث، ثم هربت من البيت من دون أن تترك خبراً عن مكان ذهابها أو عن موعد عودتها. وهكذا تغيّرت حياة هانا كلياً في خلال ساعات. كانت هذه الطفلة بحاجة إلى الرعاية، مما استوجب توقف دراستها وحياتها الاجتماعية، لكنها لم تتذمر.

في الواقع، استحقت هذه الطفلة البريئة الرائعة الجمال كل تضحية، لا سيّما أنها من دم هانا ولحمها، أما رغباتها الشخصية، وحاجاتها، فستفكر فيها في وقت لاحق. حالياً، تشغل أليزابيث أولى اهتماماتها.

بعد أن طبعت قبلة على شعر الطفلة الأشقر الحريري، أسرعت تستغل الوقت في إعداد الحانوت للعمل، وكان جزءاً من المتحف.

استمرت صورة ذلك الرجل الغريب تشغل بالها طوال الصباح أثناء

انتظارها الزبائن. وبعد أن غطّت أليزابيث في قيلولة بعد الظهر، وخمدت حركة السياحة، اتصلت هانا بالمستشفى تسأل عن المصاب.

كان من المفروض أن تشعر بالإرتياح عندما علمت أن السيد جيرود قد خرج من المستشفى لأنه لم يصب بأكثر من صداع والتواء في الكاحل.

غير أنّها لم تستطع فهم سبب خيبة الأمل التي انتابتها حين علمت أنه غادر المستشفى. فهي لم تكن تتوقع أن تراه مرة أخرى، لأن هذا لن يحدث طبعاً. وإنما خاب أملها لأنّ ذلك الرجل دخل حياتها وخرج منها بمثل هذه السرعة.

تمنت لو أن الإصطدام لم يحدث قط، لو أنها لم تنظر إلى أعماق تلك العينين البنيتين، ولم تشعر بقوة ذلك الجسد غير العادية. تمنت لو أنها لم تمسك به بشكل جعلها تتنفس رائحة رجولته، ولم تلمس شعره الكث، ولم تحفظ عن ظهر قلب خطوط ملامحه الوسيمة.

يا له من رجل رائع...

كلما فكّرت فيه أكثر، كلما تساءلت عن نوع العمل الذي أحضر رجلاً كهذا إلى «يومينغ» من دون الأمكنة كلّها. وما يدعو إلى الحيرة اكثر، هو سبب قيادته السيارة في أملاكها، لا سيّما أنّ ما من طريق فيها. لم تستطع أن تفهم شيئاً من كل هذا.

أخذت تعنّف نفسها للتفكير فيه، لأن لا فائدة من ذلك. فمهما كان سبب مغامرته في الدخول إلى أرض «يومينغ»، قد لا يمكث هنا طويلاً. ومن السخف أن تعيش على أمل رؤيته مرة أخرى أو التعرّف إليه بشكل أفضل.

ودفعها الغضب من حماقتها وسخافة تصوّراتها إلى إرهاق نفسها عمداً، فأمضت عصر ذاك اليوم بين الزبائن وهي تنزل البضاعة الأسبوعية المخصّصة للبيع من صندوق سيارتها.

وكانت آخر حزمة من النشرات الإعلامية بحاجة إلى اللف والوضع على مكتب المبيع. وقد صُنعت هذه الإعلانات لتبدو إعلانات حقيقية جديرة

بالثقة، كما ربطت كل واحدة منها بحلقة جلدية لإضفاء لمسة لطيفة عليها.
وكانت النشرات الإعلانية هذه، فضلاً عن بذلات «فرسان بريد الجياد السريع»، والخرائط الملونة لطرق بريد الجياد الوعرة، هي ما يرغب فيها السيّاح قبل كل شيء. وكانت تباع بشكل أسرع من أي شيء آخر في محطة ساندهيل التاريخية التي تحوّلت إلى متحف.

كانت هانا تظن أن «ساندهيل» تقع ضمن أملاك أسرة «كار»، وهي إحدى المحطات القليلة في البلاد التي بقيت مُصانة منذ سنة ١٨٦٠.

هذه المحطة، عبارة عن كوخ خشبي غير متقن البناء يبدّل فيه الفرسان القدامى خيولهم ويمضون ليلتهم على أسرّته الخشبية. وكان والد هانا الراحل بطل استعراضات رعاة البقر وقد تحوّل في ما بعد إلى عامل في البريد، لكنه تقاعد باكراً بسبب حالته الصحية، وحوّل المكان إلى متجر ومتحف.

في الخارج أصلح والد هانا مخزن الغلال الأساسي، فجعلته هانا اسطبلاً لمهرتها. وكان الآباء يدفعون مبالغ لا بأس بها لقاء السماح لأولادهم بركوب الفرس والطواف حول الحظيرة الصغيرة، تحت إشراف هانا.

وتعتمد هانا في معيشتها على السياح المتوافدين بكثرة إلى «يومينغ»، لا سيّما أثناء الصيف. وهي بحاجة إلى كل بنس تحصّله للإنفاق على طعام أليزابيث وكسوتها، وأقساط الجامعة، فضلاً عن الأجر الكبير الذي تدفعه لمخبر سرّي استخدمته للعثور على أختها المفقودة.

ومنذ أسبوعين، افتتحت المتحف ليتزامن ذلك مع توقف الدراسة في الجامعة وحلول فصل الصيف.

مع بداية الفصل الحار، يبدأ فصل السياحة الذي يصل إلى ذروته في شهري تموز وآب، فينفق السيّاح معظم النقود لا سيّما كبار السن منهم. إذ بينما يشتري الرجال الخرائط ويناقشون النقاط التاريخية، تتوجه زوجاتهم إلى منضدة العرض لشراء قبعات (فرسان بريد الجياد السريع) والحلى الرخيصة لأحفادهن.

وما إن أحضرت هانا النشرات الإعلانية حتى اشترت منها معظم

النساء. لكن الطفلة أليزابيث استقطبت الأنظار أكثر من أي شيء آخر. فحين وقعت عليها أعين النساء توقف كل شيء ولم تسمع إلاّ صيحات الإعجاب بها. ولم يستطع الرجال مقاومة التربيت على رأسها. وبينما الجميع يتلكأ، كان البيع يزيد.

ظنت هانا أن الطفلة اعتادت جذب الإهتمام، لكنها انفجرت كالعادة بالبكاء. تعلّقت بهانا، فخبأت رأسها كيلا يستطيع أحد النظر إليها جيداً. في الواقع، استمرت أليزابيث بالبكاء حتى بعد انصراف آخر حافلة للسياح.

لم يكن المتحف بالمكان المناسب للطفلة. هذا ما صرّح به السيد «مونك»، المحامي وصديق الأسرة، الذي ساعدها في العثور على مخبر سرّي حسن السمعة للبحث عن الأخت المفقودة. وكانت هانا تعرف ذلك جيداً فالحرارة تصبح خانقة في آخر النهار.

ولكن حتى لو استطاعت هانا تأمين المال الكافي لوضع أليزابيث تحت رعاية حاضنة في «الارامي» لم تكن لتتحمل فراق الطفلة طوال النهار. فهي تحبها كما لو كانت أمها الحقيقية.

وكانت الطفلة تنمو وتقوم بأشياء محيرة للغاية. كانت معجزة، وأرادت هانا أن تراقبها وهي تكبر. كما أن أليزابيث بحاجة إليها، فهي تعتمد عليها في كل شيء.. وهكذا لم تجد من خيار سوى أن تحتمل هذا الوضع الصعب وتستمر، رغم العوائق.

ولسوء الحظ، ما لبثت حالة الطفلة أن ساءت فانفجرت بالبكاء رافضة السكوت. أطعمتها هانا وغيّرت حفاظها، لكن بكاءها ازداد رغم ذلك، فظنّت أنها تعاني من مغص في بطنها.

ـ لا تبكي، يا حبيبتي.

أخذت تهدىء الطفلة وهي تتحسس خدّيها وجبينها. قاست حرارة الجوّ لتعرف ما إذا كانتا تشعران بالحرارة، أم أن حمّى أصابت الطفلة.

ازداد قلقها، فحملتها وأخذت تهزها. وعندما تصاعد بكاء الطفلة، لم يعد أمامها سوى أن تغلق المتحف قبل الوقت بساعة لتأخذها إلى عيادة

الأطفال الليلية في المدينة. كانت صحة أليزابيث تهمّها أكثر من حاجتها إلى النقود التي ينتجها المتجر.

وضعت اللوحة المكتوب عليها (مقفل) على النافذة بسرعة، ثم أفرغت صندوق النقود في مغلّف وضعته في حقيبتها. تناولت كيس الحفاظات واتجهت نحو الباب مع أليزابيث، وإذا بها تواجه مجموعة أخرى من السياح.

لم تستطع هانا أن تصدق ذلك، ففي عجلتها للذهاب إلى المدينة، لم تسمع صوت الحافلة وهي تتوجه نحو المتحف. وزادت الضجة والفوضى من انزعاج الطفلة فأخذت تبكي بأعلى صوتها.

كانت على وشك أن تخبر الجميع بأن عليهم مغادرة المتحف لأنها ستأخذ الطفلة إلى الطبيب، عندما سمعت صوت رجل يقول: «اسمحي لي».

كل ما عرفته هانا بعد ذلك، هو أن يدين سمراوين امتدتا من مكان ما، لتأخذا الطفلة من بين ذراعيها.

استدارت هانا بسرعة وإذا بها أمام ذلك الغريب الرائع الذي قابلته الليلة الماضية. بدا الآن معافىً تماماً من حادثة الاصطدام تلك.

أخذ يهمس للطفلة بجمل فرنسية قصيرة ممّا جعل هانا ترتجف في داخلها بدون سبب، ثم أخذ يقبل خدّي أليزابيث المتوهجين برفق.

ازداد بكاء الطفلة في البداية، ورغم امتنان هانا لمساعدة الرجل لها إلا أنها مدت يديها لاستعادة الطفلة منه عندما بدأت الصغيرة تهدأ.

كانت كل قبلة يطبعها على خدها تزيد في تهدئتها إلى أن ارتسمت ابتسامة على ثغرها الوردي ونسيت البكاء. وأخذت عيناها الخضراوان الدامعتان تحدقان في مظهره الرجولي باستغراق بالغ.

كبحت هانا آهة في صدرها، فحتى أليزابيث، في سنها هذا، وقعت تحت تأثير هذا الرجل الصاعق وسمّرتها جاذبيته. وخلال ثوانٍ، بدا عليها الرضا لضمه إياها إلى صدره العريض.

تعجبت هانا، وأخذت تراقب الطفلة وهي تدفن وجهها في عنقه السمراء. ودلّ ذلك على أن أليزابيث شعرت بالأمان والانتباه اللذين قدمهما

هذا الرجل لها.

قالت إحدى السائحات المسنّات بصوت سمعه الجميع: «من المؤكد أن لزوجك طريقة خاصة في معاملة طفلتك الحلوة هذه».

لكن ذهول هانّا لما كانت تراه، حال دون عثورها على كلمات تصحح خطأ المرأة هذا.

تلاقت عينا الغريب بعيني هانا مرة أخرى، فأخذت عيناه البنيتان الذكيتان، بأهدابهما الكثيفة الداكنة، تجولان ببطء فوق ملامحها، باعثتين الوهن في أعضائها.

وفي ناحية هادئة من المكان، قال لها: «هذا أقل ما عليّ فعله بعد بطولتك الليلة الماضية. استمري في عملك مع الزبائن، بينما نتعارف أنا وهذه الطفلة الذهبية البريئة، بماذا أدعوها؟».

ـ اسمها...

وتنحنحت هانا: «اسمها أليزابيث».

***

٢ ـ كان وهماً

ـ أليزابيث.

سمعته يكرر الإسم بلهجة فرنسية قبل أن يعود إلى تقبيل أنفها الصغير وخديها.

بقيت الطفلة مبتسمة، لقد أحبّت هذا الرجل! يبدو أنها لا تعاني من ألم في البطن.

لم تستطع هانا أن تصدق ردة فعل أليزابيث تجاه الغريب، فالطفلة اعتادت على رفض أي شخص غريب يتقرب منها. ومضت لحظة شعرت فيها هانا بالغيرة من أليزابيث وهي تراها تستحوذ على انتباه الرجل.

كان الرجل طبيعياً للغاية مع الطفلة مما جعل هانا تتصوّر أنه أب لأكثر من طفل، لذا تعلم كيف يوقف هذه الدموع. من الطبيعي أن يكون لرجل مثله زوجة وأسرة، سواءً أكان في إصبعه خاتم زواج أم لم يكن! من السخف أن تعتقد شيئاً آخر، ناهيك عن الافتتان به.

حوّلت نظراتها عنه بسرعة، وأخذت تلبي حاجات السياح الواقفين أمام منضدة البيع، وبقي البيع مستمراً لأكثر من عشرين دقيقة.

ومن حين لآخر، كانت تلقي نظرة على ذلك الرجل الآسر الذي يروح ويجيء بعرج خفيف وهو يهز الطفلة بذراعيه القويتين، فيما بدا الرضى على عيني الطفلة شبه المغمضتين.

لم تستطع أن تصدق، أنه ذلك الرجل الذي كان شبه غائب عن الوعي نتيجة الحادث الذي تعرّض له الليلة الماضية.

وأخيراً، أصبح المتحف خالياً، واشتبكت عيناه بعينيها.

ـ هل أنت عائدة إلى «لارامي» الليلة؟

كان في صوته نبرة عطف وهو يتأمل وجه هانا المتوهج.

شعرت هانا بأن شكلها غير ملائم، فالفرشاة لم تمس شعرها منذ الظهر كما أنها لم تجدد أحمر الشفاه. وفي مثل هذا الجوّ الحار، كانت بحاجة ماسة إلى الاستحمام وتغيير ملابسها.

كانت أليزابيث قد تقيأت منذ فترة وجيزة، فوسّخت لها قميصها لذا، حاولت أن تغسله بماء من الزجاجة لأنها لم تستطع الإنتظار إلى حين عودتها إلى شقتها.

ـ نعم.

ـ وأنا أيضاً. عندما تستعدين لإقفال المكان، إسمحي لي بمساعدتك في أخذ الطفلة إلى سيارتك، ثم سأتبعك إلى المدينة. ربما بامكاننا التحدث بعد وضعها في سريرها.

أخذ قلبها يخفق لدى سماع كلماته هذه، وسألته: «نتحدث؟»

ـ نعم، لقد جئت أمس إلى هنا لهذا السبب، لكنك كنت مشغولة. ولهذا قررت القيام بجولة أثناء انتظاري لرحيل حافلة السياح، لكنني لم أركّز على الطريق كما ينبغي، فحدث لي ما تعرفينه.

كانت هانا آسفة للغاية لذلك، فقد تركت تلك الحادثة أثراً بالغاً لديها. وتمتم يقول بصوت أجش: «لكنني لا أتذكر ما حصل، خيّل إليّ الليلة الماضية أن ثمة ملاكاً ذهبي الشعر».

وانحدرت نظراته إلى قوامها المغري فسرت في جسمها حرارة غريبة. أضاف: «لم أكن أعلم أن الملائكة تنزل إلى الأرض منتعلة أحذية رعاة البقر».

ابتلعت هانا ريقها بصعوبة وهي تسمع هذه الكلمات.

ـ ربما من الأفضل أن تتحدث عما تريده الآن، يا سيد جيرود.

ـ اسمي دومينيك، ما اسمك أنت؟

ـ أنا.. هانّا. هانّا كار.

لم تقصد أن تُظهر في صوتها نبرة التحفظ هذه.. لكنها كانت الطريقة الوحيدة لمواجهة مشاعرها المشوشة فقد منعها الإضطراب من التفكير بشكل واضح لا سيما وهو يقف قريباً منها إلى هذا الحد.

ـ أودّ أن أسألك، إذا لم يكن لديك مانع، عن السبب الذي جعلك تزعج نفسك وتقطع كل هذه المسافة مرة أخرى؟

ـ أردت أن أشكرك بشكل صحيح لإنقاذك حياتي.

ثم مدّ يده إلى جيبه الخلفي. وإذا بها تراه يخرج ورقة مالية بخمسمئة دولار ويضعها على المنضدة بجانب مقعد الطفلة.

لم تمد يدها إلى الورقة المالية، بل قالت: «أنا لم أنقذ حياتك، يا سيد جيرود، كما أنني لن آخذ نقودك».

ـ أرجوكِ اسمحي لي بأن أرد جميلك بهذه الطريقة البسيطة. أنفقيها على الطفلة الغالية إذا لم تنفقيها على نفسك، لقد كنت ملاك الرحمة بالنسبة إليّ. وأنا أشكرك كثيراً.

فهزّت هانّا رأسها وقالت: «هل تعلم أنني كنت لأسبب لك ضرراً بالغاً بنقلك من مكان الحادث من دون معرفة ما إذا كان لديك كسر في الرقبة أو العمود الفقري؟»

ضاقت عيناه الحادتان وهو ينظر إلى ملامحها الكلاسيكية: «لم أعد أذكر بوضوح، لكنني أذكر جيداً إصراري على الوقوف على قدميّ. لم يكن بإمكانك منعي وهذا يعني أنني لم أترك لك من خيار سوى أن تساعديني. لماذا لا نكون واضحين؟».

كان في صوته نبرة فولاذية، وشعرت أنه ذو شخصية قوية وسطوة بالغة بين أمثاله.

يولد بعض الرجال قادة وهو من هذا النوع من الرجال. وأكثر ما يثير الإعجاب هو المحبة والحنان الطبيعيان اللذان أبداهما نحو الطفلة.

كان الرجال من جيران هانا وأصدقائها يتقربون من أليزابيث ويدورون

حولها ما يكفي من الوقت لكي تألفهم وتتجاوب معهم. لكنها لطالما نفرت من أي اهتمام أو انتباه.

ـ إذا كنت مصرة على عدم أخذ النقود، هلاّ سمحت لي، على الأقل، بأن أدعوك على العشاء غداً مساء فأعبّر لك عن شكري؟ وهذه الدعوة تتضمن طبعاً زوجك وأليزابيث.

فشهقت، قائلة: «ليس هناك من زوج، أنا وأليزابيث فقط».

سيبقى الحال هكذا إلى أن تعود أختها ليزا بنفسها أو يعثروا عليها. أرجوك يا إلهي أعدها إلينا سالمة.

إزاء ذلك الإعتراف، تعلّقت عيناه بعينيها: «أقيم في فندق «إكزكيوتف إن» في «لارامي». أخبريني أين تسكنين، وسآتي لأخذك عند الساعة السابعة».

ـ في الواقع، هذا ليس ضرورياً، يا سيد جيرود.

فقال بحزم: «إسمي دومينيك، واسمحي لي بأن أخالفك الرأي. من دون عونك لي تلك الليلة، لزلّت قدمي إلى النهر وفقدت الوعي».

عندما ارتجفت لهذه الفكرة، شعرت به يراقبها.

قال بحثّها: «هل تقرّر الموعد بيننا؟».

شعرت بأنه لن يدعها وشأنها إلا بعد أن يحصل على موافقتها. وتابع قائلاً: «سأدعك تقررين مكان العشاء، وأثناء تناول الطعام سأخبرك عن سبب تجوالي بسيارتي خلف المتحف حينذاك».

تسارع نبضها.

ملأتها فكرة الخروج معه إلى أي مكان، وتناول العشاء بالإثارة. لكن عليها أن تتذكر أنه قد يكون متزوجاً، وأنه ربما لم يطلب منها الخروج لأسباب عاطفية.

بما أنها لم تقبل نقوده، فهذه الدعوة هي البديل الوحيد لرد جميلها. ومن السخف أن تتوقع شيئاً آخر من دعوته لها، خصوصاً أنه اقترح أن يرافقها زوجها.

يفترض بها إذن أن تعتبر الأمر مجرد عشاء عمل! بللت شفتيها بتوتر وهي تقول: «في فندق «اكزكيوتف إن» مطعم جيد. لماذا لا أقابلك هناك في السابعة والنصف؟ إذا كانت أليزابيث بحالة جيدة، سنصل في الوقت المناسب».

نظر إليها طويلاً وقال: «سأنتظر مهما طال الوقت».

ومن دون سبب عاد قلبها يخفق بعنف.

ـ أعتقد أن لديك زبائناً.

أدارت هانا رأسها بسرعة نحو الباب، آملة أن تخفي الإحمرار الذي علا وجهها. كان عليها أن تلاحظ ما يجري في مؤسستها.

ـ قبل أن أغادر، سأضع أليزابيث في عربتها وأتأكد من بقائها نائمة. ما رأيك؟

بدا لها هذا رائعاً... بل أكثر من رائع، ونظرت إليه بسرعة: «أشكرك. ولكن لا بد أن لديك ما يشغلك».

تمتم وهو يحدّق إليها بعنف قبل أن يتوجه إلى خلف منضدة البيع مع الطفلة: «ألم تفهمي أنك شغلي الوحيد الآن».

وبينما أخذت هانا تخدم الزبائن، كانت تنظر إلى ناحيته، غير قادرة على تجاهل الطريقة الرقيقة التي يعامل بها الطفلة. حدّثها شيء ما بأنها إذا لم تكن حذرة، سيتمكن دومينيك جيرود من التغلغل في رأسها وقلبها حتى لا تعود تعرف نفسها.

بعد أن ترك المتحف بوقت طويل، بقيت مشغولة البال بتلك النظرة التي رمقها بها قبل أن يخرج.

لعل الضوء في المتحف، جعل نظرته تبدو حميمة للغاية، وشهقت لمجرد التفكير بذلك. لكنها ما لبثت أن ندمت على تصرفها الأحمق عندما سألتها الزبونة التي كانت تقوم بخدمتها، عما إذا كانت بخير.

أكدت لها هانا، بارتباك، أنها بخير، إلاّ أن هذا لم يكن صحيحاً على الإطلاق. فقد كانت متوترة الأعصاب، تملأها التوقعات، وهي لن تعرف

النوم هذه الليلة.

***

ركب دومينيك، بمزاج مرتبك غاضب، سيارته المستأجرة واتجه إلى المدينة، مفتقداً سيارته الجيب التي لن يتم إصلاحها قبل الغد.

لم يسبق لامرأة أن رفضت هدية منه، سواء أكانت مالية أو غير ذلك. في الواقع، لم تظهر امرأة من قبل مقاومة كهذه لاهتمامه بها.

ففي علاقاته مع النساء، منذ العشرين من عمره، اعتاد أن ينهي العلاقة أولاً. وقد أدهشته الصعوبة التي وجدها في إقناع الآنسة كار بالخروج معه للعشاء، وتساءل إن كانت لا تزال تحب والد الطفلة. وأثارت فكرة اتخاذها عشيقاً جديداً اشمئزازه.

يمكنه أن يعالج أمر العشيق، أما الزوج فأمر آخر. وضغط على أسنانه، وهو يدوس على البنزين بعنف بدون وعي منه.

كانت حدود دومينيك تنتهي دائماً عند النساء المتزوجات، رغم أن أباه لم يكن يتبع مثل هذه المبادىء الأخلاقية. وهكذا، خالف أباه زير النساء الذي كانت خياناته الزوجية مصدر تعاسة بالغة لزوجته.

مجرد التفكير في الماضي أظلم قلبه، ولم يشأ أن يعود إلى تلك الأيام الغادرة مرة أخرى، فمد يده وتناول هاتفه الخليوي ليحدّث زين: «مرحباً...».

ـ دومينيك! كيف تسير الأمور عندك؟

تمتم قبل أن ينتبه إلى أنه يفشي سراً: «لست واثقاً».

ـ ماذا يعني كلامك هذا؟ سبق لك أن واجهت عقبات، لكنها لم تزعجك قط.

حك دومينيك ذقنه بشرود. لم تكن هانا كار عقبة بالضبط. وبعد فترة صمت، عاد زين يسأله: «ما الذي يجري؟»

ـ ليتني أعلم.

ـ لقد أصبحت لغزاً، وهذا يجعلني متوتر الأعصاب.

- لقد عثرت على الكلمة المناسبة.

- إلى متى تريد أن تبقيني في الظلام؟

- إنني أوقف سيارتي الآن أمام فندقي. إمنحني دقيقة حتى أصل إلى غرفتي، وعند ذلك أعاود الإتصال بك لأخبرك عن الحادث الذي وقع لي.

سادت فترة صمت أخرى قبل أن يسأله زين: «هل أصابك ضرر؟».

أطفأ دومينيك المحرك وأجاب: «لولا الملاك الذي أنقذني لكان الأمر أسوأ».

- ملاك؟ ما الذي تتحدث عنه، يا دومينيك؟

***

استيقظت أليزابيث من قيلولة بعد الظهر جائعة. وإزاء ركود حركة الزبائن، اغتنمت هانا الفرصة وأغلقت المتجر قبل الوقت المعتاد، لا سيّما أنها لم تعد تستطيع القيام بأي نشاط.

بعدما وضعت الفرس «سينامون» في الحظيرة، وتأكدت من وجود العلف والماء لها، اتجهت نحو البيت. كان عليها القيام بالكثير من الأعمال في وقت قليل قبل أن تتوجه نحو الفندق مع أليزابيث.

أطعمت الطفلة واعتنت بها ثم وضعتها في عربتها المتنقلة في غرفة النوم. وبهذا بات لديها الوقت الكافي للاغتسال هي أيضاً.

شعرت بعد ذلك بالانتعاش. لكن المشكلة كانت في العثور على شيء مناسب ترتديه. لم تنوِ التأنق لأجل السيد جيرود، لكنها بطبيعة الحال، لم تستطع أن ترتدي بنطلوناً.

كانت هانا تملك أثواب شتوية عدة جيدة لتظهر بها في مناسبات الجامعة. ولكنها تحتاج إلى ملابس صيفية، ولم تكن تملك ثمن ثوب جيد، مما يعني أن عليها ارتداء ثوبها الصيفي القديم، وهو ثوب دون كمين، فتحة عنقه متوسطة الاتساع. كما كانت تملك حذاء أبيض خفيفاً. لبست ثيابها ووضعت عقداً من اللؤلؤ حول عنقها وبعد أن انتهت اتصلت «ببوب أرنولد» المخبر السري المكلف بالبحث عن شقيقتها، لكنه لم يخبرها بأي

جديد.

لم يعثر على ليزا بعد، غير أنّ هانا لم تستسلم، فهذه الأمور غالباً ما تتطلب وقتاً طويلاً.

أخبرته بأنها تتفهم الأمر لكن الانتظار صعب، فكل شهر يمرّ على غياب ليزا يبعد الأم عاطفياً عن ابنتها. أما من الناحية المالية، فتنقود هانا تكاد تنفذ، لكنها كتمت هذا الأمر في نفسها لأن من الضروري أن تعثر على ليزا مهما كلف الأمر.

وبمزيج من الحزن والقلق على أختها، أخذت تنظر إلى نفسها في المرآة مرة أخرى. لقد أحدث القلق وليالي الأرق هالات داكنة تحت عينيها أشبه بالبقع.

كان من الممكن تغطيتها باستعمال الزينة، لكن لم يسبق لهانا أن تبرّجت، إذ كانت تكتفي بالكريمات المغذية للبشرة.

بعد أن ماتت أمهما وهي تضع ليزا، أصبح والدهما صارماً للغاية. وعندما بلغتا سن الرشد، منعهما من استعمال أي مستحضرات مصنّعة.

- لقد منحكما الله شعراً ذهبياً وعيوناً خضراء وبشرة كالقشدة، كأمكما. لستما بحاجة إلى زينة أخرى، وهذا يكفي.

ربما لأن هانا هي الأخت الأكبر بثماني سنوات، فقد أطاعته دون سؤال. أما ليزا فأخذت تقاوم سلطته العنيدة خطوة خطوة. ولطالما أزعجت مشاجراتهما هانا، فكانت تتسلل إلى الخارج تمتطي فرسها ولا تعود إلا بعد أن تطمئن أن المشاجرة انتهت. عند ذلك، تصعد إلى غرفة النوم لتجد أختها تبكي.

بقيت الأمور على حالها حتى مات والدهما. بعد ذلك حاولت هانا إدارة منزلهما الصغير والسهر على أموالهما الزهيدة. لكن ليزا عشقت الحرية وأصبحت أكثر تمرداً من أي وقت مضى.

ها قد رحلت الآن. تساءلت هانا إن كانت ستعود إلى البيت، وابتلعت غصة في حلقها ثم اندفعت تحضر عربة الطفلة. وبعد أن وضعتها في السيارة،

أسرعت إلى الشقة لتحضر أليزابيث.

انحنت تقبّل وجنتيها الورديتين، وهمست بحنان: «نحن الآن اثنتان فقط، والحمد لله لأجلك».

ثم استقامت وقالت: «والآن هل أنت مستعدة لتتناول العشاء مع السيد جيرود؟ أتعلمين؟ ما كان علينا أن نذهب، فهو رجل محنّك. هو أكثر حنكة من أن نستطيع التعامل معه. لا تتعلقي به كثيراً يا حبيبتي، فقد لا نراه بعد هذه الليلة أبداً».

كانت هذه نصيحة جيدة.

ولسوء الحظ، لم يستمع قلب هانا لهذا التحذير حين رأته لأول مرة مستلقياً على العشب، وجعل التفكير في رؤيته مرة أخرى قلبها يخفق. وحين وصلت إلى موقف سيارات الفندق، كانت وجنتاها متوهجتين رغم مكيّف الهواء في سيارتها.

هتفت حينما انفتح الباب ورأته مرتدياً بذلة صيفية رمادية وقميصاً أبيض: «أوه..!». كان ينتظرها، واكتسحتها جاذبيته.

ـ مساء الخير يا هانّا، جئت في موعدك تماماً.

وتلاقت أعينهما قبل أن تحوّل عينيها بعيداً باضطراب. لكنها شعرت بعينيه تقيمانها بتمهل وصراحة، ولم يفتهما شيء.

شعرت بيده على ذراعها العارية تساعدها على النزول من السيارة، فأرسلت لمسته موجة حرارة في جسدها.

ـ سأخرج أليزابيث.

وقبل أن تتمالك نفسها، فتح الباب الخلفي ثم أخرج الطفلة من مقعد السيارة وأخذ يتمتم في عنقها: «همم... يا حلوة، رائحتك زكية كشكلك». ثم قبل وجنتيها وذقنها، فأخذت أليزابيث تضحك بصوت عالٍ.

رأت هانا أن نصيحتها لم تعطِ نتيجة، فهما غارقتان في مياه عميقة جرّهما إليها هذا الرجل.

خوفاً على بذلته الأنيقة، وضعت هانا منديلاً نظيفاً على كتفه، في حال سال لعاب أليزابيث عليه. واضطرت لأن تقف على أصابع قدميها مما جعل رأسها قريباً من رأسه، واحتكت أصابعها بفكه سهواً، فقالت متوترة: «خذ هذه وضعها على كتفك، يا سيد جيرود».

بدت في عينيه نظرة عنف لم تتوقعها: «لماذا يستحيل عليك أن تناديني دومينيك؟».

اهتزت لهذا العنف، فابتعدت عنه مجفلة وأجابت: «ربما لأنني نشأت على أن أكون رسمية مع المارة».

فقطب حاجبيه وقال بصوت أبح: «لكنني فعلت أكثر من مجرد المرور في أملاكك. فقد تعدّيت عليها، وأرغمتك على ترك أليزابيث وحدها لكي تنقذيني من وضع خطر. لم يكن لديك فكرة عمن أو عما ستجدينه عند وصولك إلى هناك، كان يمكن لسيارتي أن تنفجر لكن ذلك لم يعقك. أكثر الناس لا يعلمون كيف يواجهون الأمر. أما أنت فقد كنت بارعة في وضعي على الفرس وأخذي إلى مكان آمن، أمسكت بي كي لا أقع. لقد أصبحنا، تلك الليلة، أكثر من مجرد غريبين، يا هانا».

لفظ اسمها بنبرة أجنبية خفيفة أحبتها من بين شفتيه.

تحوّلت عن عينيه النفاذتين، واستدارت تحضر العربة، ثم قالت مازحة لتغطي مشاعرها المضطربة: «أرى من سلوك أليزابيث أنها تتفق معك».

ودون انتظار جواب منه، سارت نحو مدخل المطعم، وهي تدفع العربة أمامها، فيما أسرع هو بخطواته ليلحق بها، وعرجه يكاد لا يُلحظ. عندما دخلا الردهة، نظرت فتاتان في التاسعة والعاشرة من العمر، كانتا مع والديهما أمام الصندوق، إلى أليزابيث ودومينيك، وقالت الفتاة التي تضع النظارات: «ابنتك جميلة جداً».

فأجاب بحنان أب جديد مزهو: «أظن ذلك».

فاجأت إجابته هانا، فابتلعت ريقها بصعوبة وقالت الفتاة الأخرى: «هل تسمح لنا بالنظر إليها؟».

منحهما ابتسامة قطعت أنفاس، وقال:

ـ أليزابيث تخجل قليلاً من الغرباء، لهذا لا تنزعجا إن بكت.

ثم أنزل الطفلة إلى مستوى أعينهما، وإذا بشفتها السفلى ترتجف ووجهها يتغضن وانفجرت باكية.

ـ أنت تريدين «بابا» فقط، أليس كذلك؟

داعبت إحداهما ذقنها بينما أمسكت الثانية بأصابعها الصغيرة.

قاومت هانا غريزتها في الإندفاع إلى الطفلة، فلو حاول أي شخص أخذ أليزابيث من دومينيك في هذه اللحظة، لما احتملت الطفلة ذلك. وبدأت الطفلة تحدث فوضى، فاستدارت الرؤوس ناحيتهم.

التمعت عينا دومينيك وهو يرى الوضع مسلياً للغاية. ثم أعاد الطفلة إلى مكانها المفضل متكئة على قلبه، وسرعان ما هدأت مطمئنة.

شكرته الفتاتان وركضتا عائدتين إلى والديهما، فنظر إلى هانا هازلاً: «هل ندخل؟»

أخذت نفساً عميقاً وأجابت: «لا أدري إذا كانت أليزابيث ستبقى هادئة أثناء الوجبة الطويلة، ربما من الأفضل أن نعيدها إلى السيارة، ونذهب إلى «لاروس» في الطرف الآخر من المدينة حيث نستطيع أن نأكل في السيارة. يقدمون «همبرغر» لذيذ هناك».

وتأكدت هانا فجأة من أن مشاركة هذا الرجل وجبة باهظة الكلفة، ليست بالفكرة الحسنة.

ـ ليس هذا ما فكرت فيه لهذه الليلة.

ـ أعرف هذا، بإمكان الطفلة أن تغيّر أحسن الخطط.

ترددت لحظة، ثم أضافت بهدوء: «سأتذكر مراعاتك هذه، يا دومينيك».

تمتم وقد بدا الغموض فجأة في نظراته: «أحقاً؟».

تبدّد المرح كلياً، مما جعلها تشعر بشيء من الضيق. وفتحت حقيبة يدها، آملة ألا يلحظ ارتجاف يديها.

ـ هذه مفاتيحي إذا أحببت أن تقود السيارة بنفسك، وهذه هي ورقة الخمسمئة دولار التي نسيت أن تأخذها.

***

عندما أوقف دومينيك السيارة أمام المحل، أدرك أن تغيير خطته خدم هدفه بشكل جيد. فالأكل معاً في سيارتها الصغيرة جعل الأمور حميمة. وأفضل ما في الامر هو ذلك الرضى الذي بدا على وجه الطفلة وهي جالسة في مقعدها الصغير. فما دامت بحالة جيدة، لن تتمكن أمها من استعمالها ستاراً تتجنب به التركيز عليه.

لم يحصل قط على انتباه هانّا التام باستثناء يوم الحادث حين كان شبه غائب عن الوعي. لكن الأمور ستتغير.

تقدمت منهما امرأة ودسّت بطاقة تحت مسّاحة الحاجب الزجاجي الأمامي للسيارة قائلة: «مرحباً. ماذا أحضر لكم؟».

بينما راح يطلب الطعام، رأى المرأة تتأمله بعناية: «عفواً، ولكن ألم أرك من قبل؟».

كانت هذه الأسئلة تُوجه إليه باستمرار مما اضطره إلى التعوّد على ذلك. لكن التطفل عليه هذه الليلة أغضبه.

ـ لا، مع الأسف.

ـ بل رأيتك على شاشة التلفزيون.

تمتم: «ربما أشبه شخصاً رأيته».

ما أكثر المزعجات هنا، إن الظروف تتآمر ضده وضد رغبته في الانفراد بهانا.

ـ لا، بل كنت في عرض «أميركا اليوم»، لكنك أكثر وسامة شخصياً، وقد أخبرت زوجي أن اسمك فرنسي، وأنا أتذكره لأن لفظه أعجبني «دومينيك».

فأجفل.

ـ آسفة إذا كنت أحرجتك، ولكن هذا مثير للغاية. كذلك الرجلان

اللذان كانا معك في البرنامج وسيمي الشكل أيضاً، يجب أن أخبرك. . كان ذلك أجمل برنامج رأيته منذ سنوات!

ـ أحقاً؟

ـ تماماً. أرجو أن يعني هذا أنك ستجعل قطارك السريع يمر ضمن «الارامي»، فزوجي لا يحب ركوب الطائرة كما يكره قيادة السيارة لفترة طويلة. عندما ينتهي المشروع، يمكننا الذهاب إلى أي مكان نريده، بسرعة من دون أن نترك الأرض.

سكتت للحظة، ثم تابعت تقول:

ـ بعد أن أحضر لكما الطعام، هل يمكنني أن أحظى بتوقيعك؟ فمن دون برهان لن يصدق زوجي أنك جئت إلى «لاروس» لتأكل مع أسرتك، سوف تأسر هذه الدمية الصغيرة القلوب عندما تكبر تماماً كأبيها.

عندما حاول أن يكبح تأوّهه، شعر بهانا تميل لتتحدث إلى النادلة: «إذا أحضرت معك قائمة طعام، سأجعل دومينيك يوقّع لك عليها. ما اسمك؟».

فلمعت عيناها وأجابت: «ماري، ماري غيتز. أشكرك كثيراً! ما دمت زوجته، أريد توقيعك أنت أيضاً، اتفقنا؟».

طمأن دومينيك المرأة: «إنها ستوقع لك».

وانتقلت نظراته إلى عينيها اللتين تنافسان بخضرتهما الحشائش الخضراء، وقد زاد في جمالهما تلك الأهداب الداكنة اللون والحاجبان الجميلان تحت الخصلات الذهبية.

كان كل جزء من ملامحها الكاملة الجمال في وجهها البيضاوي، وخصوصاً شفتيها الجميلتين النسخة المكبرة عن شفتي أليزابيث، يجذب اهتمامه إلى درجة لم يشأ معها النظر إلى أي شيء آخر. لم ير يوماً امرأة لها مثل هذا الفم المغري والبشرة الخالية من أيّ عيب، لا بد أنها بنعومة بشرة الطفل. لم تكن تضع على وجهها أية زينة عدا أحمر الشفتين. لقد منحتها الطبيعة بشرة كالقشدة تنفق النساء ملايين الدولارات على مواد التجميل

لكي يحصلن على بشرة مثلها. ودومينيك أعلم الناس بذلك، فتلك الملايين هي التي كوّنت ثروة أسرته. وهو يراهن الآن على عدم وجود أيّ مادة تجميلية من شركة «دار حواء» سواء في حقيبة يدها أو في حمامها، فيا للسخرية!

امرأة لها مثل هذا الوجه والثغر الرائع، أي رجل على وجه الأرض يمكنه أن يهجرها مع ابنتها أليزابيث؟ أتراها ما زالت تحبه؟

لم يفهم دومينيك شيئاً من ذلك، إلا إذا كانت أرملة. إن كان الامر كذلك، فهو يفسر الأثر القاتم تحت عينيها.

تنهد. ما أكثر الأسئلة التي تحتاج إلى جواب! ولكن عليه أن يتقدم ببطء.

ـ ما كان عليك أن تخبر النادلة بأنني سأعطيها توقيعي، يا دومينيك.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ لأنني لست زوجتك.

ـ ما دمت غير متزوج ولا كنت متزوجاً، لا أرى في ذلك أي مشكلة، ألم تسمعي بـ «الكذبة البيضاء؟».

ـ وأنت اختلقتها؟

فضحك: «ولكنها صحيحة. فكّري كم ستسعدها».

ـ آه، ها هي آتية بطعامنا.

ـ الحمد لله، أكاد أموت جوعاً.

ـ تفضلا.

وأدخلت النادلة الصينية من نافذة السيارة.

ـ كم تريدين؟

ـ ما دمت ستوقّع لي على هذه القائمة، لن آخذ منك بنساً واحداً.

ثم ناولته قائمة حساب جديدة وقلماً. فوقع وأعادها إليها مع عشرين دولاراً.

فقرأت الكلمات بصوت مرتفع: «عزيزتي ماري. أرجو لك ولزوجك

رحلات كثيرة ممتعة بالقطار عبر البلاد في المستقبل القريب. مع أخلص التحيات من السيد والسيدة دومينيك جيرود».

ثم رفعت رأسها وصرخت: «رباه، هذا رائع. لكنني لا أستطيع قبول المال».

ـ لا، أصرّ على ذلك.

ـ حسناً، شكراً مرة أخرى.

ـ أهلاً وسهلاً.

ـ عندما تنهيان الطعام، أومضا فقط أضواء السيارة فأحضر لأخذ الصينية.

عندما أسرعت بالابتعاد، التفت دومينيك إلى مرافقته الجميلة التي بقيت صامتة أثناء الحديث. وضع في شرابها قشة، ثم ناولها ما طلبته، قائلاً: «أخيراً، أصبحنا وحدنا».

* * *

٣ ـ مجرد تسلية

تناولت هانا الطعام منه، وأخفت تأثرها لمعرفة أنّه أعزب.

من المؤكد أن السبب لا يعود إلى عدم عثوره على زوجة. لعله دفن حبه لامرأة ما، فألقى بنفسه منذ ذلك الحين في أحضان العمل.

ـ آسفة لأنه فاتني رؤية ذلك البرنامج التلفزيوني الذي تحدثت عنه ماري، ما هو عملك الذي تعيش منه يا دومينيك؟

كادت تموت من الفضول.

نظر إليها من فوق حافة كوب الكولا: «أسافر عبر البلاد لأقنع مالكي الأراضي مثلك ليشتركوا في فكرة مثيرة عن وسائل النقل في القرن الواحد والعشرين».

لكن ذلك لا يدفع له ثمن الطعام وأجرة الفنادق وإصلاح سيارته الجيب. والخمسمئة دولار التي حاول أن يقدّمها لها لا بد أنها جاءت من مكان ما!

سألها بلطف: «دعيني أوجّه اليك سؤالاً، من هو صاحب الأملاك التي يقوم عليها المتحف؟».

دهشت لسؤاله وأجابت: «إنه لأسرتي منذ أجيال».

ومض شيء في أعماق هاتين العينين القاتمتين اللتين لا يمكن نسيانهما، هاتين العينين المظللتين بأهداب سوداء كثيفة. مرة أخرى، شعرت بجمال الرجولة في هذا الرجل بأسرها.

ـ مع من يمكنني أن أناقش مسألة استعمال أرضك في المشروع الذي

أشترك فيه؟

ـ أتعني «القطار السريع» الذي تحدثت عنه ماري منذ لحظة؟

ـ نعم، أريد رخصة لإنشاء خط قطار في أملاكك.

ـ هل ستفعل ذلك حقاً؟

لوى شفتيه: «عدم تصديقك لا يدهشني، فقد أبدى كل من تحدثت إليه ردة الفعل نفسها. إنني أمثل مجموعة من الناس كرّست نفسها لإنشاء قطار خاص يمتد من نيويورك إلى سان فرانسيسكو».

ـ أتعني مثل ذلك الذي في اليابان؟

ـ بالضبط. وهو يسير بواسطة المغناطيس الذي يجعله يرتفع عن الأرض ليسير في الهواء. سيسير بسرعة تقرب الخمسمئة ميل في الساعة، ويجب الحصول على رخصة من كل من يملك أرضاً يمرّ المشروع فيها قبل انشائه. وأملاكك تمتد على طول الطريق التي سبق ومسحناها من الجوّ.

وأخيراً، عرفت سبب وجوده على أرضها تلك الليلة.

ـ منحنا صاحبا الأملاك المحاذية لأملاكك تلك الرخصة.

دهشت لهذا الخبر غير المتوقع، وهزت رأسها غير مصدقة: «هل سيبيعان أراضيهما؟».

جعل سؤالها الطفلة تتحرك في المقعد الخلفي..

ـ لا، إننا لا نطلب من أحد أن يبيعنا الأرض إلاّ كحلّ أخير. نحن نفضل طبعاً تقديم أسهم في شركتنا لقاء استخدام الأرض، وسترتفع أسعار الأسهم كثيراً في المستقبل.

فواجهته قائلة: «هذا شيء لا يصدق، لا أملك سوى الإعجاب بمشروع كهذا. سمعت أن الفرنسيين لديهم مثله، هم أيضاً. لكن حتى لو حققت هذا المشروع هنا في الولايات المتحدة، فأنا آسفة لأني لا استطيع منحك الرخصة التي تريد. ورغم أن فكرة مرور قطار سريع من هنا مثيرة للغاية، عليك أن تفهم أن للأرض ناحية تاريخية. فقد احتفظت بها الأسرة دون أن تُمس طوال أجيال، ولا يمكنني أن أبيعها أو أسمح بالتلاعب بها. أنا

آسفة».

قالت كلماتها هذه بتردد لأنها أرادت حقاً أن تجيبه بكلمة (نعم). وبعد قضمة أخرى من الهمبرغر، عادت تقول: «يبدو الامر أشبه بعمل بطولي رائع من المستحيل إنجازه. لكنني لا أظن أن كلمة (مستحيل) موجودة في قاموسك».

ـ معك حق.

أربكت ابتسامته البطيئة مشاعرها، وأحست بأن هناك الكثير لم يخبرها به.

ـ لا يمكن أن أكون الشخص الوحيد الذي رفض طلبك.

ـ هذا صحيح.

لم تستطع مواجهة نظرته الثابتة، فالتفتت إلى الخلف تنظر إلى أليزابيث التي عادت إلى النوم. ثم سألته: «ماذا تفعل عند ذلك؟».

ـ أتمسك بالأمل في أن يغيروا رأيهم. منذ أن وضعت مشروع حلمي هذا، تسعة وتسعون بالمئة من أصحاب الأراضي الذين تحدثت إليهم طلبوا مهلة أيام قليلة أو أسابيع لكي يدرسوا الفكرة، وتستغرق دراستهم عادة تلك الفترة. حين ينتهون من دراستهم، يبدأ توقيع الأوراق، وفي الوقت نفسه، أبحث عن طرق بديلة.

ـ ولكن لا بد أن ذلك مثير للإحباط!

ـ أحياناً، خصوصاً عند التعامل مع الولاية والموظفين الفيدراليين، لكن الأحلام لا تتحقق من دون خيبات أمل وعوائق.

ـ لا أستطيع أن أتصوّر مثل هذا المشروع العملاق، ألا يستغرق حصولك على كل الحقوق أشهراً؟

ـ حدث هذا فعلاً. فأنا لم أصل إلاّ إلى القطاع الشرقي من «يومينغ». ما زال هناك القطاع الغربي، «إيوتا»، «نيفادا»، و«كاليفورنيا». لكن هناك الكثير من الوقت وأنا لست مستعجلاً.

أنهى بقية طعامه، فقالت: «أخبرني، من باب الافتراض، لماذا عليّ أن

أقبل بمرور القطار في أرضي، باستثناء الحصول على الأسهم؟».

ـ ربما بالنسبة إليك شخصياً، لا يوجد سبب، لكنك سمعت ماري. زوجها لا يحب الطيران، وهناك ملايين من الناس اللذين لديهم الخوف نفسه، ومع ذلك عليهم أن يقطعوا مساحات شاسعة من هذه القارة. السيارة بطيئة، خطرة، ومحدودة جداً، أمّا القطار فيسير على وسادة هوائية بسرعة عظيمة من دون أن يسبّب أيّ ضرر للبيئة. لي صديق حميم مهندس، وقد وضع نموذجاً لهذا القطار، يسير بهدوء وسلام ويسمح للمسافرين بأن يروا في الوقت نفسه البلاد التي يمرون بها. لكن لن نحصل أبداً على مثل هذا القطار إلا إذا ساهم ألوف من الناس والوكالات الحكومية بأملاكهم لأجل الخير العام.

فهزت رأسها: «ليس الأمر أنني لا أريد المساهمة بأرضي. ولكن قبل أن يموت أبي قطعت له وعداً بأن أتمسك بها ولا أبيعها أبداً».

كان هناك سبب آخر فالأرض أرض ليزا أيضاً، وهي ليست هنا لكي تعطي موافقتها.

ـ لا تقلقي، فالوعد يجب الوفاء به. سأحلّ مشكلتي بنفسي، لقد اعتدت على ذلك.

كان بالغ اللطف والتهذيب. لكنها شعرت بما وراء ذلك من حماسة بالغة لهذا المشروع.

ـ الفكرة بأكملها هي من بنات أفكارك. أليس كذلك؟

فتنحنح قائلاً: «هذا صحيح».

ربما أزعجه فضولها، لكنها لم تستطع التوقف عن طرح الأسئلة. كان لهذا الرجل جوانب كثيرة في شخصيته شعرت بالشوق إلى اكتشافها.

ـ هل تخاف من الطيران؟ هل هذا ما دفعك...

فقاطعها قائلاً: «الجواب هو، لا. لكن أمي، وهي إنكليزية، ترتجف لمجرد التفكير في ركوب طائرة أو سفينة. وعندما انتقلت إلى نيويورك، اعتادت أن تقول لي إنها تدفع كل ما تملك إن وجدت قطاراً يقطع المحيط،

لتزورني كلما شاءت. ومع أنني لم أستطع أن أحقق لها تلك الأمنية، إلا أنها احتلت أفكاري».

كانت هذه المعلومات تعذيباً صرفاً لها، لأنها شعرت بأن هناك الكثير الكثير لم يخبرها به بعد.

بعض الناس لديهم أحلام. لكن هذه الأحلام لا تتحقق إلا إذا شاركك آخرون في تصوّراتك وخططك، وهناك أشخاص قادرون على القيام بمثل هذا المشروع الجبار.

لقد فهمت الآن لماذا لم يتزوج. فهو بحاجة إلى امرأة غير عادية يمكنها أن تتحدّى عقله، ناهيك عن اكتساب قلبه. وتعاظم شعورها بالألم، مما جعلها تدرك بأن الوقت قد حان لتعود إلى البيت حيث عالمها.

إنها قصة بالغة التأثير، ولا شك أن الرجفة البسيطة في صوتها كشفت عن حالة مشاعرها، حين قالت له: «أنا واثقة من أن أمك في غاية البهجة لعملك على تحقيق أمنيتها في مكان آخر من العالم، حتى لو لم تستطع هي الاستمتاع بها. والآن، إذا لم يكن لديك مانع، أظن أن علينا أن نعود. أنا وأليزابيث نستيقظ باكراً في الصباح».

فرد بصوت خشن: «وأنا كذلك».

سيرحل، كانت تعلم أن هذا أمر مُحتمل. وملأتها فكرة رحيله بالفراغ، مما أدهشها وأخافها. ناولته بسرعة الكوب والغطاء ليعيدهما إلى الصينية، وأضاء مصابيح السيارة فأسرعت ماري إليهما.

ـ كيف وجدتما الطعام.

ـ إنه ألذ همبرغر ذقته في حياتي.

فابتسمت وخاطبته من فوق كتفها قائلة: «سأخبر صاحب المحل، بذلك».

أغمضت هانّا عينيها بشدة. كان لهذه الكلمات صداها في نفسها.

منعها انزعاجها من هذه الأفكار، من تبادل الاحاديث العادية معه، فتظاهرت بالاهتمام بما تراه من نافذة السيارة بجانبها حتى وصلا إلى

الفندق. وبدلاً من أن يقف بالسيارة أمام المدخل، سار حول الفندق وتوقف خلف سيارته الجيب. وقبل أن تطرف بعينيها، قفز من مقعد القيادة في سيارتها واستدار يفتح لها الباب.

همست: «شكراً لك».

ومنعها قربه البالغ منها من تجنب الاحتكاك به وهي تستدير لتصعد إلى مقعد القيادة في سيارتها. وفي هذه اللحظة، تفاعل جسدها مع ذلك الاحتكاك القصير، وشعرت بصعوبة في إدارة المحرّك.

ـ كان العشاء ممتعاً. شكراً وأرجو لك التوفيق يا... دومينيك.

تلعثمت لأنه بقي صامتاً، ثم تابعت: «أتمنى لك نجاحاً باهراً في مشروعك».

ضاقت عيناه وهو ينظر إلى وجهها المرفوع إليه: «لماذا لا نوفّر كلمات الوداع حتى أوصلك إلى بيتك بالسلامة؟».

خفق قلبها، كان يعني أنه سيلحق بها في سيارته الجيب.

عندما وصلا إلى الموقف بجانب شقتها، كانت أشبه بكتلة من المشاعر المرتجفة، وما إن أطفأت المحرك حتى جذب أليزابيث من المقعد الخلفي.

ركضت هانا صاعدة الدرجات ومفاتيحها في يدها. لم يسبق لها أن واجهت مشكلة في فتح بابها، ولكن لسبب ما، لم يدخل مفتاح الباب الأمامي في القفل. وإذا بيد دومينيك تتدخل للمساعدة؛ فتح الباب، فقالت وهي تجاهد لتتمالك نفسها: «شكراً لكل مساعداتك. يمكنني تدبّر أمري الآن».

استدارت لتأخذ منه الطفلة، لكنه تسلل من جانبها داخلاً إلى غرفة الجلوس حيث تركت المصباح مضاءً.

عندما أصبحا معاً في الداخل أخذت أليزابيث منه، فصرخت الطفلة للقسوة التي سُحبت بها من بين تينك الذراعين الشديدتي العضل. فقالت وهي تحتضنها: «شكراً لاصطحابنا إلى البيت. والآن، من المستحسن أن تذهب. فما دامت أليزابيث تعلم أنك هنا، لن تهدأ».

ـ أنا راحل، لكنني سأعود، إلى اللقاء.

ظنته سيقبل وجنة الطفلة، لكنه لم يفعل، بل خرج بسرعة.

همست تخاطب أليزابيث التي لم تكف عن الصراخ وهي تأخذها إلى سريرها: «إنني أعرف شعورك بالضبط. لكنه قال إنه سيعود».

عرفته جيداً إلى حد جعلها تعلم أنه يعني ما يقول، كما كانت تعلم أنه رجل مشغول وذو مسؤوليات جمة، وقد تمضي أسابيع قبل أن يتمكن من زيارة «لارامي» مرة أخرى.

كانت تدرك أن الانتظار سيبدو لها أبدياً، فقررت أن تشغل نفسها كي لا يبقى لديها وقت لتفكر كيف غيّرت معرفتها به حياتها.

ولكن بعد مضي أسبوع كامل بدون كلمة منه، بدأت تفكر في أن الصلة التي كانت واثقة من أنها انعقدت بينهما، مجرد وهم. فلو كانت مشاعره بقوة مشاعرها، لوجد طريقة ليراها مرة أخرى، وإن لساعة واحدة فقط.

كانت تخرج إلى المتحف باكراً كل صباح وتتأخر أكثر من العادة على أمل أن يمرّ بها. لكن عدم مروره بها هنا، أو في الشقة، بدّد أي أمل راودها بأنه أحبها.

رجل في منتصف الثلاثينات من عمره، بقي متهرباً من الزواج حتى الآن، لا يهتم بالإلتزام، خصوصاً رجل صاحب رسالة مثل دومينيك. وما دامت هانا لا تهتم إلا بمبدأ الزواج، فالموقف كله يدعو إلى السخرية.

وعلى الرغم من كون يوم الجمعة اليوم الذي يأتيها بأكبر قدر من الإيراد من المتحف، فلم تحتمل عذاب الجلوس وتوقع حضوره، ليخيب أملها مجدداً.

بدلاً من ذلك، أخذت تنظّف الشقة، ثم وضعت الطفلة في بيت صديقتها «إيلين»، لكي تتمكن من أخذ سيارتها إلى الكاراج لإجراء كشف عام عليها. وبينما هي تنتظر في كاراج «تورنتون»، أخذت تتصفح مجلة وجدتها على المنضدة، لكن لم يلفت نظرها شيء.

عندما أخبروا الزبون الآخر أن سيارته جاهزة، ألقى بالمجلة التي كان

يقرأها، على المنضدة. فالتقطتها هانا آملة أن تشغلها عن التفكير بدومينيك ولو لدقائق. كانت تلك المجلة تبحث في الاقتصاد وتدعى «اقتصاد الولايات المتحدة»، واسترعى الغلاف انتباهها. أخذت تقرأ المقالة التي تحدثت عن أصحاب الثروات الأميركيين الذين أصبح عددهم مئتين وتسعة وثمانين.

لم تستطع أن تتصور شخصاً واحداً يستحق أن يملك ذلك القدر من المال.

أخذت تقلب الصفحات، تمعن النظر في صور رجال عاديي الشكل ونساء، مع تخمين مقدار ثرائهم بحسب ما يمتلكون.

ـ هانا، سيارتك جاهزة.

ـ شكراً يا جيم، سأحضر حالاً.

ردت عليه وهي على وشك أن تلقي المجلة من يدها، وإذا بها ترى وجهاً لا يُنسى جعلها تصرخ غير مصدقة.

دومينيك.. وعادت تتمسك بالمجلة.

كان هناك صورتان له. الأولى تمثله وهو يدخل مبنى في شارع مزدحم، ويرتدي بذلة عمل قاتمة اللون بالغة الأناقة. لم يبدُ دومينيك راضياً لأخذ هذه الصورة له.

دومينيك جيرود، الأعزب الوسيم الذي تلاحقه النساء، مهندس مدني صاحب شركة «دار حواء»، مقيم في بروفانس ـ فرنسا، يبدو أمام مركزه الأميركي في نيويورك. التخمين لثروته (سبعون بليون).

شهقت هانا، هل (دار حواء) لأسرته؟ لم تستطع أن تصدق ذلك، فشركة مواد التجميل هذه معروفة في كل بيت في العالم. وفي أحد الأعياد، اشترت هانا لأبيها «كولونيا» رجالية من هذه الماركة بعبير الليمون وقد أحبتها بشكل خاص.

أمّا في الصورة الثانية، فكان يبدو وهو يخرج من بوابة منزل أجداده، في «سانت بول دي فنس»، ويقود سيارة فارهة سوداء. بدت ملامحه البالغة

الوسامة شاردة غير باسمة، كانت الصورة تقول أشياء كثيرة.

هذه الصورة تعكس قصة حياة من نوع متفرّد. وبنظرة واحدة شعرت هانا بالهوّة الكبيرة القائمة بينهما، فحالة دومينيك أشبه بنهر يجري بين جبلين.. وهذا شيء مدهش. إنما لا يمكنها أن تقيم جسراً لتصل إليه.

نظرت مطوّلاً إلى الصورتين، فبدت لها قطع اللغز الغامض الذي يمثله دومينيك في أماكنها المناسبة، كإصرار النادلة على أنها رأته في مقابلة تليفزيونية بشأن مشروعه. فهمت فجأة كل كلمة من الحديث، وحصلت على أجوبة لتلك الأسئلة التي لم تجرؤ على توجيهها إليه عن أسرته. ما عدا واحداً...

(ما هو عملك الذي تعتاش منه، يا سيد جيرود؟).

(أسير في أنحاء البلاد لأتحدث إلى أصحاب أملاك مثلك).

ودفنت وجهها بين يديها. رجل مثله يمكنه الحصول على كل ما يريد.. ومن يريد.

حسناً، لن تكوني أنت.. يا هانا كار، بكل تأكيد.

لقد علمت تلك الليلة أن هذا أجمل من أن يكون صحيحاً، لقد عرفتِ ذلك، لكنكِ لم ترغبي في أن تصدقي.. أردت شيئاً لن تستطيعي الحصول عليه، فأنت لست من النوع الذي يناسبه.

كما قد لا تكون أي امرأة أخرى من نوعه، ألهذا السبب لم يتزوج قط؟ من المؤكد أنه لن يأخذك إلى بيته ليقدمك إلى أسرته فهو لم يحدثك عنها. كما لم ينبس بكلمة واحدة عن شخصيته الحقيقية لأنه لم يعتبر ذلك ضرورياً. لقد كنت مجرد تسلية مؤقتة، لا غير!

لعل هناك عدد لا يحصى من النساء مرّ بما عاشته هانا، نساء يتلهفن إلى أي شيء منه، إلى أن يسأم منهن.

بدت هذه المقالة كفيلة في أن تنسي هانا دومينيك جيرود.

قفزت هانا من على الكرسي وتقدمت من المكتب لتدفع الحساب. وبعد أن أعطاها الرجل الأوراق ومفاتيح السيارة، سألته: «جيم، هل يمكنني

أخذ هذه المجلة؟ إنها قديمة يعود تاريخها إلى أكثر من سنة، لكنها تتضمّن مقالة هامة أريد الاحتفاظ بها. هل لديك مانع؟ سأدفع لك ثمنها».

ـ إنك من أفضل زبائني، خذيها، أراك لم تحضري معك الأميرة الصغيرة هذا اليوم؟

فقالت ساخرة لتخفي عذابها: «إنه مشهد نادر، أليس كذلك؟ أشكرك لكل شيء، يا جيم».

وأسرعت خارجة إلى الموقف لتأخذ سيارتها، وتمنّت أن تصل قبل أن يرى أحد دموعها تسيل على خدّيها.

قربها من دومينيك جعلها تعرفه رجلاً عالي الثقافة وذا حنكة وتجربة، وبعيداً عن عالمها. ولكن خيالها الجامح ما كان ليتصور ما قرأته عنه الآن.

هذه المجلة ستفيدها في بحثها عن الحقيقة. وفي المستقبل، كلما رغبت في الحصول على ما لا تستطيع نيله، ستقرأ هذه المقالة وتنظر إلى صوره.

بعد ذلك بدقائق، أحضرت الطفلة من بيت صديقتها ثم عادت بها إلى شقتها، وهناك أخذت تذرع الغرفة مع الطفلة. وأخيراً، لم تعد تحتمل.

ـ فلنذهب إلى الحديقة العامة، إنك تحبين ذلك، أليس كذلك يا حبيبتي؟ سنجد ظل شجرة قرب الجدول حيث تنظرين إلى الفراشات، بينما أرتق القميص الذي سأرتديه في استعراض الأسبوع القادم بحضور اللواء و...

ولم تستطع إكمال حديثها لأنها انفجرت بالبكاء.

***

أخذ دومينيك وزين يلوّحان لآليك من سيارة الجيب. منحهما ابتسامة عريضة وهو يسير نحوهما من طائرته الخاصة التي أحضرته إلى «لارامي». بعد لحظات ألقى بنفسه في المقعد الخلفي مع كيسه الخشن وحقيبة أوراقه.

ـ مسرور بنجاحك، يا رجلي العجوز.

ـ لقد أراحني تأجيلك الاجتماع، كنت بحاجة إلى هذه الاستراحة رغم أنه علينا مناقشة الكثير.

ـ أوافقك على ذلك. وهذا وقت مناسب تماماً لنجتمع ونرى أين وصلنا، فنضع تصميمات جديدة.

ـ هل صحيح ما أخبرني به زين عن أن عزوبتك ستتبخر في الهواء؟

سأل دومينيك زين، وهم يتوجهون نحو الطريق الرئيسي: «هل قلت ذلك؟».

فابتسم صديقه بينما قبض آليك على كتفه من الخلف: «متى سيكون الزفاف؟».

ـ ليس لدي فكرة.

ـ عليك أن تحصل على موافقتنا أولاً، أليس كذلك؟

ـ موافقة الآنسة كار هي ما يشغل بالي. لسبب عليّ أن أكتشفه، أراها مصمّمة على خلاف ذلك.

فضحك الرجلان، وقال آليك ساخراً: «لا أظن أن المرأة التي تتعبك قد خُلقت بعد».

ـ لأنك لم تعرف هانّا.

وضع زين نظاراته الشمسية إزاء وهج شمس بعد الظهر.

ـ إذا لم يستطع دومينيك أن يحضرها إلينا، فلن نتعرف إليها.

ـ متى ستتعرف إلى هذه «المرأة المدمرة؟».

ـ بعد حوالي الخمس دقائق.

كان دومينيك يعيش على أمل هذا اللقاء، بعد أسبوع طويل من الحرمان. لم يستطع التحمل أكثر من ذلك، فقد كانت الجاذبية بينهما قوية للغاية. كان مقتنعاً بأن حبيبها السابق لا يسيطر عليها.

ثمة شيء آخر كان يمنع هانا من التجاوب معه، شعر في أعماقه أنها تريده كما يريدها. يا إلهي، لم يشعر من قبل بما يشعر به الآن، لقد كلفه عدم التقرب منها كل ذرة من السيطرة على نفسه. لكنه، بعد أسبوع، وصل إلى نقطة اللاعودة.

ـ نريد أن نرى مكان انقلاب «الجيب».

ROMANSIA.COM

قال آليك ساخراً: «كيف تسمح لشيء كهذا بأن يحدث؟».

فردّ زين: «لديّ نظرية، وهي أنه الحظ، باعتبار أن ملاكاً أنقذه».

ـ منتعلاً حذاء راعي بقر، كما فهمت. دومينيك، لا تنظر الآن، لأن هناك سيارة دورية حراسة. إنها تستدير، يحسن بك أن تبطيء.

ميلان آخران وتبدو أرضها للعيان. نظر إلى الحظيرة، ولم يجد أثراً للفرس، فاتجه نحو المتحف ورأى على النافذة اللوحة المكتوب عليها (مقفل). وشعر كأنه تلقى ضربة على معدته.

كان يعلم مقدار حاجة هانا إلى المال، وإذا لم تكن هنا فالسبب هو المرض... إما هي وإما أليزابيث. وأخذ عصب في صدغه ينبض.

بقي الرجلان صامتين.

ـ سآخذكما إلى التل حيث حدث الاصطدام. وبعد ذلك، إلى المدينة.

وانعطف بالجيب نحو اليمين بحدة، مثيراً الغبار وهو يتجاوز المتحف.

***

لم تعد هانا إلى شقتها حتى وقت العشاء، وعندما غسلت الطفلة وضعتها في سريرها.

حين شرعت بإعداد الطعام استمعت إلى جهاز الإجابة في هاتفها، متلهفة لمعرفة إن كانت هناك رسالة لها. لكن لم يكن ثمة شيء، وبينما أخذت تحاول التغلب على خيبة الأمل التي منيت بها، قرع جرس الباب.

لم ترغب في رؤية أحد أو التحدث إلى أحد. أتراها جارة رأتها تدخل شقتها فأرادت منها شيئاً؟

سارت إلى غرفة الجلوس ثم نادت: «من هناك؟».

ـ دومينيك.

دومينيك! لقد عاد.

فتحت الباب بيدين مرتجفتين. كان يقف مرتدياً قميصاً حريرياً كحلي اللون وبنطلوناً كاكياً، فيما كانت هي لا تزال في بنطلون الجينز والبلوزة اللذين ارتدتهما للنزهة. بدا رائعاً.

بدت وكأنها على وشك الإغماء من الإثارة. لكنه لم ينتبه إلى ذلك وهو يتأمل وجهها وجسمها. أخذت تسوّي خصلة شعر ذهبية على جبينها وبدا عليها التوتر.

قال من دون تمهيد ونظراته لا تفارق وجهها: «تبدين متوهجة. هل كنت مريضة؟ هل هذا هو سبب عدم ذهابك إلى المتحف اليوم؟».

ـ لا، أنا بخير.

كانت تكذب.

ـ ماذا عن أليزابيث؟

ـ هي أيضاً بخير.

ـ أيمكنني الدخول؟

الآن، بعد أن حصلت على رغبة قلبها، لم تستطع أن تفكر.

ـ نعم، طبعاً. سامحني.

فتحت الباب على اتساعه، ولاحظت أنه يحمل بيده كيس تسوّق. وعندما مرّ بقربها احتك جسمه بجسمها فأشعل فيه النار.

بدت الغرفة صغيرة الحجم عندما وقف فيها. الحمد لله أنها نظفت البيت هذا الصباح، إذ تبدو هذه الشقة الصغيرة المليئة بالأثاث وأغراض الطفلة وكتبها المدرسية، بدون نظام دوماً.

وضع الكيس على الأرض، ثم انتقل إلى المنضدة الجانبية حيث تضع هانا صوراً للأسرة، وفي الوقت الذي تمنت فيه ألاّ يوجه إليها أي سؤال، قال: «من هذه؟».

ـ إنها أختي ليزا.

ـ إنها تشبهك كثيراً. كم عمرها؟

ـ ثمانية عشر عاماً الآن.

كان عيد ميلادها منذ شهرين، ولم يحتفلوا به. وهو يوم حزين آخر عليها أن تنساه.

ـ أعرف أن هذه الغرفة حارة الجوّ، أتريد أن تشرب شيئاً؟

كانت متلهفة إلى تغيير الموضوع.

ـ لا، شكراً.

واستدار يتأملها قبل أن يضيف: «جئت إلى هنا لأطلب منك الخروج معي للعشاء. صديقاي زين وآليك في المدينة. إذا لم تجدي «جليسة» لأليزابيث، بإمكانهما رعايتها، إنني أضمن أمانتهما.

ـ هل هذان الصديقان هما شريكاك في المشروع؟

ألقت عليه هذا السؤال لتجد فرصة لتستوعب حقيقة ما يجري، إنما، بعد أن قرأت عنه في تلك المجلة، فقد تغير كل شيء.

ـ هذا صحيح. كنا بحاجة إلى الاجتماع، ولهذا طلبت منهما الحضور إلى «الارامي». لقد سمعا طبعاً عن الحادث الذي وقع لي فأرادا أن يزورا الموقع. أحضرتهما إلى المتحف لكي أعرفهما عليك وعلى أليزابيث، لكنك لم تكوني موجودة.

أخطأت هانا في النظر إلى عينيه، فارتجفت أمام نظراتهما الثاقبة. وتابع هو يقول: «لقد عرفا أنك أنقذتني. لذا هما متشوقان إلى التعرف بك».

قالت وقلبها يخفق: «أنت تبالغ في أهمية ذلك العمل، أي شخص كان سيقوم بما قمت به».

ـ لا، ليس أي شخص.

وضاقت عيناه وهو ينظر إلى فمها.

ـ آسفة لأنني لم أكن موجودة.

لأنه سيكون أسهل عليها أن تودعه هناك.

قال بصوت أبح: «وأنا آسف أيضاً. لم يكن مفروضاً أن يعقد الاجتماع قبل أسبوع، اتفقنا على عقد الاجتماع في «روك سبرينغس» وهذا يرضيني أكثر. ولكنني، وجدت نفسي مشتاقاً إليك وإلى طفلتك البريئة. لذا قررت عدم إضاعة أي وقت آخر كيلا تنسيني. ولكن، إذا كنت تفضلين أن أغادر...».

ـ لا..

صرخت بهذه الكلمة وقلبها يخفق ثم أضافت: «أعني... أشكر لك دعوتك، لكنني سبق أن أعددت العشاء، ومرحباً بك لتتناوله معاً، إنه معكرونة فقط».

وضع يديه على وركيه في وقفة رجولية، وبدا أن اقتراحها هذا أه.

ـ هذا رائع، بعد أشهر من الأكل في المطاعم.

يمكن للرجل أن يأكل في مطاعم خمس نجوم أي شيء يريده، لكن ما من شيء يضاهي طعام البيت.

ـ سيكون جاهزاً بعد دقائق.

ـ هذا جيد، فهذا يمنحني وقتاً لألعب مع أليزابيث. لقد أحضرت لها هدية، أين هي؟

ـ في سريرها.

ـ أهي نائمة؟

ـ لا أظن ذلك، سأحضرها.

أسرعت هانا إلى غرفة الطفلة وقلبها يخفق. كانت الطفلة تلهو بألعابها.

ـ لدي مفاجأة كبيرة لك، يا حبيبتي، ولكن لا تبتهجي كثيراً، لأنها ستكون آخر مرة نراه فيها.

حملتها بين ذراعيها وعادت بها إلى غرفة الجلوس.

حالما رأت الطفلة دومينيك، عرفته، فألقت بنفسها من بين ذراعي هانا. كانت هذه الحركة قوية إلى درجة جعلت هانا تفقد توازنها.

ـ الزابيت.

صرخت هانا خائفة، لكن سرعة دومينيك منعت أي حادث من الوقوع. وبعد أن ضحك، قال: «لقد افتقدتكما، أنتما الاثنتان».

وطبع قبلة رقيقة على وجهها البريء.

ـ أصيب صديقاي بخيبة أمل عندما لم يستطيعا التعرف إليك، أخبرتهما عنك كل شيء.

شعرت هانا، لدى سماع كلماته، برجفة لذيذة تتملكها.

ـ كما ترى أنت تعرّض نفسك للخطر عندما تطلب رؤية الطفلة.

صدرت عنها هذه الكلمات لتغطي بها مشاعر لا تحصى أيقظها هذا الرجل فيها، وأضافت:

ـ أرى أن أليزابيث قد تعلّقت بك.

منحها ابتسامة غامضة جعلت قلبها يخفق بعنف:

ـ أنا لا أشكو، بعد هذه التحية العاشقة، أصبحت مدمناً. إننا نحب بعضنا البعض، في الواقع، أليس كذلك يا صغيرة؟ هل نطلب من «ماما» أن تفتح هديتك؟ أريد أن أرى إن كانت مناسبة.

عندما مدت هانا يدها إلى الكيس الذي وضعه بجانب الكرسي، تملكها الشعور بالذنب. لم يعلم أن الطفلة هي ابنة ليزا، ولم تجد ضرورة لأن تخبره بذلك. فقد ظنّت أنها لن تراه بعد ذلك أبداً.

الآن ما من ضرورة في إطلاعه على الحقيقة سيّما أنها تعلم أن لا مستقبل لهما معاً.

اهتزت يداها وهي تمسك بعلبة الهدية الملفوفة بورق ملون. فتحتها بشوق وإذا بها ترى أجمل ثوب رأته في حياتها على الإطلاق.

حملته بين يديها، وتقابلت أعينهما على فتحة العنق المطرزة:

ـ إنها رائعة، دعينا نرَ كيف تبدو فيه.

ـ أظن من الأفضل أن تلبسها إياه بنفسك، إذا فعلت هذا، نعرف ما سيحدث.

ضحك بصوت عميق، وسرّها صوت ضحكته.

وضعت اللحاف على الأريكة لكي ينزع ثياب الطفلة، واستلقت أليزابيث راضية.

عندما ناولته هانا الثوب، لم تستطع مقاومة نفسها فسألته:

ـ أين تعلمت التصرف مع الأطفال بهذا الشكل الطبيعي؟

ـ أول حمل لأختي كان بتوأم من الذكور. وفي البداية، كان على كل شخص أن يتدخل لمساعدتها بهمة وحماسة.

أحست بأنه وأخته على علاقة حميمة، وتمنت لو تلقي عليه المزيد من الأسئلة. لكنها تراجعت لأنها لم تر منه سوى التحفظ في أموره الخاصة.

تمتم وعيناه تلمعان استحساناً وهو يوقف أليزابيث على قدميها بثوبها الجديد: «أنظري».

ثم أضاف: «ستحطمين قلوباً كثيرة عندما تكبرين، يا جميلتي».

وراح يداعبها مما جعل الطفلة تضحك عالياً.

استأذنت هانا لكي تركز اهتمامها على الصلصة التي كانت تغلي على الموقد، وعندما استدارت، وجدته ممدداً على الأرض على جانبه ورأسه على يده. وكانت أليزابيث ممددة بجانبه على بطنها، ممسكة بالشريطة التي كانت اللفافة مربوطة بها، فمزق هذا المشهد قلبها.

جاهدت هانا كي تنضم إليهما، وبدلاً من ذلك، حاولت السيطرة على نفسها وجلست على الأريكة على بعد أقدام منهما.

ـ شكراً لك على هذه الهدية السخية، يا دومينيك.

اشتبكت عيناه بعينيها.

ـ يمكنني أن أفعل أكثر من هذا بكثير إذا سمحت لي، لا أحتمل أن يقذف شخص في وجهي كل يوم بهدية أقدمها بنية حسنة.

فهمت أنه يتحدث عن الخمسمئة دولار، فقالت: «آسفة إذا بدا الأمر لك بهذا الشكل».

ـ أغفر كل شيء إن سمحت لي بأن أمضي عطلة الأسبوع التالية معك، عرفت أنه سيكون ثمة احتفال بيوبيلكم وأن هناك عرضاً خاصاً في المدينة.

حبست أنفاسها... ربما يريد اقامة علاقة معها، لكنها تذكرت مقالة المجلة «أعزب وسيم تلاحقه النساء».

***

٤ ـ لحظة الوداع

قال بلطف: «سكوتك يجعلني أفترض أنك ستمضين العطلة الأسبوعية مع والد أليزابيث. منذ متى هذه العلاقة بينكما؟».

ـ ماذا؟

ـ إذا تسرعت في الاستنتاج، فأنا أعتذر.

واستمر يداعب الطفلة، بينما أخذت هانا تسوّي الوسادة، ثم قالت: «لم أضع أيّ خطة حيث أنني سأشترك في الاستعراض».

ـ أحب أن أرى ذلك. والآن، أين والد أليزابيث؟

ـ لا أدري.

جعلها هذا السؤال تتخلى عن حذرها.

ـ لكنك ما زلت تحبينه.

ـ لا!

انفجرت بهذه الكلمة وقد توهج وجهها، وذلك قبل أن تدرك مبلغ ما كشفت عنه تلك الكلمة. وبعد صمت متوتر، قال: «إذا كنت تعنين ذلك حقاً، فهل أعتبر أن رفضك الخروج معي هو لأنك خائفة من أن يكون الرجال جميعاً من نوع والد أليزابيث؟ إذا كان هذا صحيحاً فأنت مخطئة جداً. متى كانت آخر مرة زارها فيها؟».

أصبح الموقف مؤلماً الآن: «لم يرَ أليزابيث قط».

فأظلم وجهه وسألها: «منذ متى هرب؟».

أخافها الغضب في صوته. فقد كشف الكثير عن أخلاقه، فمهما كانت

الظروف، لا يجب أن يُهجر طفل دومينيك جيرود أبداً ولا أن يُحرم من الحب.

مالت هانا وحملت الطفلة: «لقد اختفى منذ علم بقدومها، لم يضع وجودها يوماً في اعتباره».

وقبّلت أليزابيث في صدغها.

أخذ دومينيك يتمتم بالفرنسية بصوت خافت، لكن ما قاله لم يكن بحاجة إلى ترجمة لأن هانا لطالما تمتمت الكلمات نفسها بالإنكليزية.

ـ هل يرسل أي نقود؟

فهزت رأسها: «لم يكن لديه نقود قط. لكننا نتدبر أمورنا. أليس كذلك يا حبيبتي؟».

ـ يا للنذل!

ـ لا بأس في ذلك، يا دومينيك، فقد كان رحيله أفضل.

ـ هل تسكن أختك معك؟

شعرت بطعنة ألم حادة، لطرحه هذا السؤال.

ـ غادرت البيت منذ فترة.

ـ ولكن هل تساعدك؟

أجابت كاذبة: «عندما تستطيع، يا دومينيك. إذا كنا نريد أن نستمتع بطعامنا بسلام، من الأفضل أن أعيد أليزابيث إلى سريرها قبل أن يفسدها تدليلك لها».

وبعد دقائق سألها بصوته العميق الجذاب: «كيف علمت أنني أكاد أموت جوعاً؟».

ـ إنك رجل، أليس كذلك؟

تملكتها الإثارة من جراء ضحكته الهادئة، وأشارت إلى مائدة لشخصين قرب الجدار: «إذا شئت أن تجلس هناك، يمكنك أن تبدأ بالسلطة ريثما أحضر الخبز الذي يسخن في الفرن».

تفاجأت خلال الساعة التالية وهي تراه يملأ طبقه ثلاث مرات من

المعكرونة. ولحسن الحظ نامت أليزابيث بسرعة.

ـ لا أستطيع الإمتناع عن أكل كل ما أراه. كرات اللحم لذيذة، أما الخبز...

إذا كانت نيته أن يشعرها بالرضى، فقد نجح في ذلك.

ـ ما دمت ابن رجل فرنسي، فأنا أعتبر قولك هذا مجاملة حسنة.

ـ أنا لا أجاملك. أخبريني ما نوع هذا الخبز؟

طرح سؤاله هذا بعد أن التهم قطعة أخرى من الخبز المدهون بالزبدة، ولم تصدق أنه يهتم بذلك فعلاً.

ـ إنها وصفة سويدية قديمة لصنع الخبز. وهو ليس بجودة الخبز الفرنسي، ولكن...

فقاطعها قائلاً: «لا تفعلي ذلك مرة أخرى، يا هانا».

فتوقفت عن الأكل: «أفعل ماذا؟».

ـ تحقّرين كل ما تفعلينه.

فطرفت بعينيها: «وهل هذا ما أفعله؟».

فقال بغيظ بالغ: «أنت تعلمين أنك فعلت ذلك. فما فعله بك ذلك الرجل جريمة».

سقطت شوكتها في الصحن. كانت تكره الكذب على دومينيك، وجعلها الشعور بالذنب تندفع من المائدة نحو الثلاجة لتحضر الآيس كريم، وقبل أن تتمكن من سحب علبة الكرتون من صندوق الثلج شعرت بيدين قويتين على كتفيها، راحتا تدعكهما بثبات. جعلتها لمساته تشعر بالدوار حتى لم تعد تستطيع التفكير بوضوح، ثم همس بصوت أبح أوهن ساقيها: «هانا... ألم تدركي أنني لم أقل تلك الكلمات لأكدرك؟ ألا تعلمين أي نوع من النساء أنت؟».

سكت للحظة ثم أضاف: «إنني فقط أحاول أن أفهم كيف أمكن لوالد ابنتك أن يفعل بك هذا».

سمعته يتنفس بصعوبة وكأنه يحاول جهده السيطرة على مشاعره،

وفجأة سألها: «لماذا تبتعدين عني؟».

ـ دومينيك.

صدرت عنها صرختها المعذبة هذه إذ لم تعد تحتمل الاستمرار بهذا الشكل. ولكن عندما أوشكت على الاستدارة نحوه مذعنة للمشاعر التي تهز كيانها، رنّ جرس الباب.

أخذ يتمتم بسيل من الكلمات الفرنسية بينما تملصت من بين يديه فجأة، فسألها: «هل تتوقعين زائراً؟».

أجابت وهي ترتجف وقد توقف ذهنها عن التفكير: «لا. الأفضل أن أرى من بالباب قبل أن يعود إلى قرع الجرس فيوقظ الطفلة».

أسرعت، واعية إلى أن دومينيك يتبعها بهدوء. وقبل أن تفتح الباب، وقفت على أطراف أصابعها تنظر من خلال الناظور.

كان القادم المخبر السري المكلف بالبحث عن ليزا. لا بد أن تطوراً هاماً قد حدث، وإلا لاتصل بها بدلاً من القدوم بنفسه، ماذا لو كان خبراً سيئاً؟

وتملك قلبها الخوف.

ـ لحظة واحدة.

والتفتت إلى دومينيك، قائلة: «إنني أعرف القادم، لماذا لا تعود إلى المطبخ وتأكل الآيس كريم؟ لن أتأخر عنك».

كشف المظهر العدواني الذي بدا عليه عن ناحية أخرى من شخصيته، فبدا أشبه بعدو لا يمكن قهره. قال بصوت كأنه آت من كهف عميق مظلم: «هل أنت واثقة من أن لا ضرر سيحدث لك؟».

ـ كل الثقة.

ورأته يطبق أسنانه وهو يغادر الغرفة كارهاً.

فتحت الباب وقد هبط قلبها، ثم خرجت إلى الفسحة أمام البيت كي لا يسمع دومينيك أو الطفلة صوتهما.

ـ بوب؟ يبدو أن لديك خبراً هاماً؟

فأومأ الرجل إيجاباً: «لقد وجدت أختك، إنها في فورت «كولينز».

فشهقت هانا: «أقريبة هي إلى هذا الحد؟».

كانت المدينة الجامعية في كولورادو لا تبعد أكثر من ساعة.

ـ نعم، تبعاً لما أخبرني به الميكانيكي في الكاراج المحلي. دخلت الجامعة مع طالب يدعى «ستيف رايت» أحضر إليه شاحنة للإصلاح. لكن الشاحنة التي لم تعد بنفس لونها الأصلي، هي شاحنتك. لقد أعطاني الميكانيكي رقم التليفون الذي أعطته لهم. وقد اقتفيت الأثر إلى عنوان في «كاشي ـ بودر لين». ليس لديّ أدنى فكرة عن الوقت الذي أمضته على هذا العنوان ولا إلى متى ستقيم فيه. إذا شئت أن تواجهيها، أقترح عليك الذهاب إلى هناك الآن.

وناولها ورقة مطوية.

ـ سأذهب، شكراً لمساعدتك لي.

واغرورقت عيناها بالدموع.

ـ أهلاً بك يا هانا، أتمنى لك حظاً جيداً.

عادت إلى شقتها ودموع الارتياح والقلق تغسل وجنتيها، وإذا بها تصطدم بدومينيك الذي أمسك بذراعها يثبتها، وإذ رأى دموعها، سألها: «سمعت صوت رجل. هل هو والد أليزابيث؟ هل هددك بشكل ما؟».

صرخت: «لا».

ولأنها كانت الحقيقة، جاء صوتها مقنعاً، فأخذ صدره يعلو ويهبط: «هانا... مهما كان هذا الأمر، دعيني أساعدك».

بللت شفتيها متوترة، وقالت بصوت مرتجف: «أتعني ذلك حقاً؟».

فقال بمرارة لاذعة: «كيف يمكنك أن توجهي إليّ هذا السؤال؟».

فقالت مختارة كلماتها بحذر: «دومينيك، هناك شيء عليّ أن أقوم به الليلة، عليّ أن أرى شخصاً».

ـ أتريدينني أن أبقى مع أليزابيث؟

ـ لا. سآخذها معي، أريدك أن تعود إلى أصدقائك.

فتصلّب جسده: «إذا كنت تظنين أنني سأدعك تذهبين إلى أي مكان مع

الطفلة في هذا الوقت من الليل، فأنت لا تعرفينني أبداً، لن أخطو خطوة واحدة خارج هذه الشقة إلا معك. والآن، يمكننا أن نذهب في سيارتي أو في سيارتك، الخيار لك».

كانت إرادة دومينيك الحديدية أقوى من أن تواجهها الآن. كان يعني ما يقول، وكانت هانا مستعجلة إلى حد لم تشأ أن تضيع الوقت بالجدل لا سيما وأنها تعلم أنه سيربح في النهاية.

ـ لا بأس، ما دامت كرسيها ما زالت في سيارتي، فلنذهب فيها. ويمكنك أنت أن تقود.

وهكذا حملا أليزابيث وأسرعا بها إلى حيث سيارة هانا.

سألها: «إلى أين نحن ذاهبان؟»

ـ إلى «فورت كولينز»، هنالك منعطف بعد مغادرتنا لارامي مباشرة.

سألها بعد فترة من سيرهما: «من ذاك الذي تريدين رؤيته بمثل هذه السرعة هناك؟».

لديه الحق في أن يعلم، وقد أعطته هذا الحق حين وافقت على أن يقود السيارة بها. أجابت: «أختي».

ـ أفهم من هذا أنها في مشكلة.

ـ أنا.. أنا لست واثقة.

فنظر إليها: «يبدو عليك التعب. لماذا لا تغمضين عينيك وتحاولين أن تنامي؟ سأوقظك حالما نصل إلى هناك».

شكرت الله لأنه لم يلح عليها لمعرفة المزيد من المعلومات. أطاعته رغم علمها بأنها لن تتمكن من النوم، الآن وهي على وشك مواجهة أختها. وأخذت الذكريات الحزينة تراود ذهنها.

بعد أن هربت ليزا في شاحنة هانا القديمة، طلبت من كاراج تورنتون أن يضعوا لها علاقة لجرّ العربة في مؤخرة سيارتها. لم تكن هذه فكرة حسنة بالنسبة إلى سيارة صغيرة، لكن لم يكن أمامها خيار آخر إذا أرادت أن تسحب عربة فرسها وتستمر في المشاركة مع استعراضات «فرقة النجدة». إلا

أن الإهتمام بأليزابيث وضع حداً لكل نشاطاتها غير النظامية، باستثناء الاهتمام بفرسها. فقد شكّلت تلك الفرس البهجة الوحيدة التي بقيت لها.

ـ لقد وصلنا، يا هانا.

بهذه السرعة؟ شدّ دومينيك على يدها. سرت من يده الحرارة إلى جسمها قبل أن يترك يدها كارهاً.

فتحت عينيها، ورأت شاحنة زرقاء في طريق يؤدي إلى ڤيلا صغيرة.

ـ كيف يمكنني المساعدة؟

ـ سبق وقمت بذلك بقيادتك السيارة، لن أتأخر.

خرجت من السيارة وفتحت الباب الخلفي لكي تأخذ الطفلة، وعندما ابتعدت عن السيارة أخذت تقبل الرأس الصغير الذهبي الملاصق لذقنها.

ـ لقد كبرت يا حبيبتي ولن تعرفك ليزا، إنها الآن على وشك أن تحصل على أكبر مفاجأة في حياتها. فلنذهب.

صعدت الدرجات إلى باب الڤيلا بعزيمة راسخة، ثم قرعت الجرس. كانت ساعتها تشير إلى العاشرة والنصف، لكنها لم تكترث لتأخر الوقت. لقد انتظرت هذه اللحظة أشهراً طويلة.

كان التلفزيون مسموعاً، وسرعان ما فتح الباب فتى أشقر، حسن الهيئة، يرتدي سروالاً قصيراً من دون قميص. بدا أنه لم يتجاوز الواحدة والعشرين من عمره.

بدت المفاجأة في عينيه الزرقاوين وهو يلاحظ الشبه البادي بينها وبين ليزا رغم فرق الثماني سنوات بين عمريهما.

ـ مرحباً، أنا هانا كار. إذا كانت أختي ليزا هنا، هل لك أن تخبرها بأنني أريد التحدّث إليها؟

فأجاب ذاهلاً: «بكل تأكيد، سأناديها. دقيقة واحدة».

أخذت هانا تتنفس بعمق وهي تنتظر، لا بد أن خمس دقائق مرّت قبل أن تسمع صوت خطوات.

ـ كيف عثرت عليّ؟

كان هذا السؤال الغاضب أول ما نطقت به ليزا بعد خروجها إلى أختها مغلقة الباب خلفها.

ـ هيا، لا يمكننا الحديث هنا.

لم تتغير ليزا، اعتصر قلب هانا وهي تتبع أختها، التي كانت ترتدي سروالاً قصيراً وبلوزة خفيفة، فانعطفتا حول زاوية المنزل.

ثم استدارت نحوها بعنف وعيناها تلتهبان عداء: «ماذا قلت لستيف؟».

ـ لا شيء، سألته فقط عما إذا كانت أختي هنا.

ـ لا شيء آخر؟

ـ لا.

ـ هذا حسن. فأنا وستيف تزوجنا. ولا أريده أن يعلم أنني أم لطفلة.

إزاء هذا القول الصريح، تبدّد كل رجاء ساور هانا بأن عواطف الأمومة ستتحرك في قلب ليزا حالما ترى طفلتها التي تعدت الستة أشهر من عمرها.

ـ هل أنت متزوجة؟

ـ نعم. يوم أكملت الثامنة عشرة، ولا أريد أن يتحطم زواجي.

ـ لكن أليزابيث هي ابنتك، وهي من دمك ولحمك!

فهزت ليزا رأسها: « أردت أن أجهض لكنك لم تدعيني أفعل. لقد أخبرتك في المستشفى بأنني أريد أن أعرض الطفلة للتبني، لكنك رفضت.. ظناً منك أنني سأغيّر رأيي، وعرضت أن تهتمي بالطفلة إلى أن أدرك أنني أريدها. هل نسيت؟».

فتأوهت هانا، كانت تتذكر كل شيء.

ـ حسناً، لم يأت ذلك اليوم، لذلك تركت البيت. والآن لديّ فرصة حقيقية كي أصبح سعيدة، لأن ستيف هو عكس أبي تماماً، فهو لا يلقي عليّ الأوامر. لكنه إذا عرف أنني كذبت عليه، سيهجرني. أرجوك لا تخبريه (عنها).. عديني يا هانا!

إذن، هذا كل ما يعنيها من أمر أليزابيث؟

ندمت، للمرة المئة، لأنهما لم يقصدا مستشاراً قانونياً بعد موت أبيهما. لكن لم يكن لديهما سوى القليل من المال، وكانت ليزا سترفض ذلك.

ـ إسمعي، أنا آسفة لرحيلي دون أن أخبرك بمكاني، لكنني لم أعرف ماذا أفعل غير ذلك. أنا لا أريدها، يا هانا، اعرضيها للتبني.

شعرت هانا بالمرض لهذه الفكرة: «ليزا...».

ـ الطفلة بحاجة إلى أسرة تريدها حقاً، تأكدي فقط من أنها لن تحصل على أب كأبينا.

كان هذا النقاش بالنسبة إلى هانا، أسوأ من أي كابوس: «ماذا ستخبرين زوجك عن الطفلة؟ لقد رآني معها».

ـ سأقول له إنك أردت إخباري أنك قررت عرضها للتبني بما أن لا زوج لديك، لا مشكلة في هذا.

أحنت هانا رأسها لتقبل جبين أليزابيث.

ـ هل أخبرت ستيف أن لك أختاً؟

ـ طبعاً، سأدعي فقط بأنك لم تريديه أن يعلم أن لديك طفلة. إنه يعلم عن حياتنا، وعن أبينا، يعلم أنك في الجامعة وأننا متشابهتان كثيراً في الشكل. أخبرته أنك فارسة جيدة، يمكنك أن تصدقي أو لا، لكنني كنت أخطط للإتصال بك قريباً. قبل أن أرحل عن البيت، كنت أعلم أنك ستحاربينني بالنسبة إلى التبني. وهذا ما جعلني أنتظر فترة إلى أن تنتهي منها ويتملكك الاشمئزاز من العناية بها. لا يمكنك الإنشغال بتربية طفلة والاستمرار في الدراسة في نفس الوقت. لقد وفرت عليّ زيارتك إتصالاً هاتفياً. كيف عثرت عليّ، على كل حال؟

ـ آه، يا ليزا.. إنها الشاحنة.. لقد استأجرت من يقتفي أثرها.

ـ آه.. آسفة لهذا. سأعيدها إليك حالما يشتري ستيف سيارة.

فهمست بكلمات مفككة: «لا بأس، إعتبريها هدية الزفاف مني».

ـ أظنك حسبتني سرقت رخصة قيادتك أيضاً. آسفة، لكنني كنت

بحاجة إليها لكي أحصل على وظيفة هنا في «فورت كولينز». كنت أعلم أن بإمكانك الحصول على نسخة عنها بسرعة.

إذن، هكذا ضاعت رخصة قيادتها.

ـ هل كنت هنا طوال الوقت؟

ـ نعم، إنني أصنع «البيتزا». وهذا ما جعلنا نتعارف أنا وستيف، إنه سائق في نفس الشركة، ويحاول أن يدخل الجامعة. سأساعده، وبعد ذلك سيساعدني. نادراً ما نحصل على أوقات فراغ معاً، أنت محظوظة لعثورك علينا معاً في البيت الآن. إسمعي يا هانا، إذا أعطيت الطفلة إلى أسرة متلهفة إلى أطفال، فقد تتعرفين إلى «بروفيسور» أو ما أشبه في الجامعة. فأنت في السابعة والعشرين تقريباً بدون احتمال لزواج قريب. على كل امرأة أن تجد فرصة تعثر فيها على رجل أحلامها، وستتعرفين إلى رجل أحلامك يوماً ما. ولكن هذا لن يحدث إذا التصقت بشقتك ترضعين طفلة وتغيرين حفاظاتها.

تململت هانا.. لقد قابلت رجلها فعلاً ولكن لا مستقبل لهما معاً.

على كل حال، كانت هانا، تعلم شيئاً واحداً. عندما أرسل إليها القدر دومينيك، لم يعد يهمها أيّ شخص غيره في العالم. وإذا حدث أن قابلته ليزا ذات يوم، فستعلم ما الذي جعلها لا ترضى بأي رجل آخر.

ـ ستيف ينتظرني وعليّ أن أدخل إلى البيت، هل لديك رقم هاتفي؟

فأومأت هانا مرة أخرى.

ـ هذا حسن، حالما تتصلين بوكالة التبني وتعلمين منهم ما علينا أن نفعل، إتصلي بي لكي أوقع الأوراق. ستيف يشغل وظيفتين، لكنني لا أذهب إلى العمل قبل الثالثة. أحسن وقت تجدينني فيه عند الظهر، عندها سأخبر ستيف أننا سنتناول الغداء معاً أو شيئاً من هذا القبيل.

وبينما وقفت هانا ذاهلة، قبّلت ليزا خدّها، وقالت: «سرّني حقاً أن أراك مرة أخرى. إنتبهي إلى نفسك، يا حبيبتي».

ثم سارت لتدخل المنزل بدون أن تلقي نظرة واحدة على الطفلة.

انهمرت الدموع من عيني هانا، وضمت أليزابيث إلى صدرها: «كيف

يمكنني التخلي عنك، يا حبيبتي؟ لا أستطيع هذا».

عندما وصلت إلى السيارة، كان دومينيك في انتظارها، فأخذ الطفلة من بين ذراعيها ووضعها في مقعدها.

عندما جلس خلف عجلة القيادة، كان الوقت قد فات لكي تمسح هانا دموعها، فقد سبق ولاحظ مشاعرها المعذبة.

ـ يبدو أنك واجهت صدمة.

فقالت بصوت مرتجف: «دومينيك.. إنني أدرك أن نيتك طيبة، ولكن.. هذا شيء خاص.. لا يمكنني التحدث عنه حالياً، خذنا إلى البيت من فضلك».

تحرك بالسيارة وهو يومىء برأسه من دون وعي عائداً بها إلى لارامي وقد ساد الصمت بينهما.

ولم تكن حالتها تسمح لها بمواجهة الاستنطاق الذي ينوي القيام به عند الوصول، فحملت الطفلة وأخذت تصعد السلم.

ـ هانا؟

سمعت وقع خطوات خلفها.

أسرعت تفتح الباب ثم ركضت في الشقة لتضع أليزابيث في سريرها. عندما خرجت من غرفة النوم بعد دقائق، كان دومينيك في انتظارها في الردهة.

في الضوء الخافت واجه أحدهما الآخر كغريمين. كان الألم قد هز كيانها، فأخذت ترتجف دون أن تستطيع التوقف.

مدّ يديه بسرعة يمسك بكتفيها. حاولت الإبتعاد عنه، لكنه شدّ قبضتيه عليها: «أخبريني بما حدث، يا هانا، كلما لمستك تأخذين بالارتجاف. مهما فعل بك حبيبك السابق، ألا تعلمين أنني لا يمكن أن أؤذيك أبداً؟».

أدركت هانا أنهما وصلا إلى نقطة لم يعد بإمكانها أن تكذب عليه، فصرخت تقول: «ليس لدي حبيب سابق، لم يكن عندي حبيب قط».

واستعملت كل قوّتها حتى تتخلص من قبضتيه.

تصلب جسمه الجبار على الفور: «ماذا تقولين؟».

ـ أليزابيث ليست طفلتي، إنها طفلة أختي.

ـ يا إلهي!

قالت وهي تجاهد لالتقاط أنفاسها: «كانت ليزا في السابعة عشرة من عمرها عندما تورطت مع رجل غادر لارامي حين علم أنها حامل. لم تكن تريد أن تلد الطفل لكنني منعتها من الإجهاض، وحالما ولدت أليزابيث، أرادت أن تعرضها للتبني، ومرة أخرى قلت لها لا، فهربت. لذا استخدمت مخبراً خاصاً ليعثر عليها، وهذه الليلة اقتفى أثرها إلى عنوان في «فورت كولينز». ذهبت إليها لأتحدث معها وأريها كيف أصبحت أليزابيث رائعة الجمال».

وعادت دموعها تنهمر: «لكن ليزا لا تريدها، بل لم تنظر إليها أو تحاول أن تحملها. منذ شهرين تزوجت أختي من طالب جامعي اسمه ستيفن رايت. لا يعرف أي شيء عن الطفلة، وقد طلبت مني أن أعرضها للتبني».

وعندما أخذت تهز جسدها شهقات قوية، شعرت بذراعي دومينيك القويتين تحيطان بها. كانت أضعف من أن تقاومه، وسرعان ما اكتشفت أن الفردوس بين ذراعي هذا الرجل القويتين.

بدا أن جسمه القوي قد امتص ألمها. لكن الأمر كان أكثر من هذا، أكثر بكثير. فقد شعرت بين ذراعيه بالأمان والحماية من كل هموم العالم. لم تشعر يوماً بمثل هذا الأمان.

ولكن حين أخذت يدا دومينيك تضمانها بشدة وهو يهمس لها بالفرنسية ملاطفاً ومهدئاً ليخفف عنها، تملّكتها أحاسيس أخرى. ولم تشعر قط بمثل هذا النوع من المشاعر التي اكتسحت كل عائق نفسي لديها.

وعندما أخذت ترتجف من قوة المشاعر التي أثارها فيها، تلك المشاعر التي لا يمكن أن يطفئها أحد غيره، اكتشفت أنها تدنو منه أكثر فأكثر.

ـ هانا...

صرخ باسمها، فنبهها إلى أنها فقدت السيطرة على نفسها.

ـ سامحني.

همست بذلك محاولة أن تبتعد عنه وهي تضحك باستياء وتقول: «ألست آسفاً لمجيئك إلى هنا الليلة لتجدني منهارة؟».

فالتهبت عيناه: «آسف؟ يا إلهي.. ما الذي تتحدثين عنه؟».

ضمها إليه بعنف، وأضاف: «أردت أن أبقى بين ذراعيك منذ اللحظة التي أنقذتني فيها».

وبدا صوته وقد مزقته المشاعر.

ـ لكنك تتألمين. ورغم أنني لا أرغب في شيء أكثر من أن نغيب في عناق طويل، أرى أن الوقت والمكان غير مناسبين. عندما نقرر التقارب الحميم، أريد أن أتأكد من أن ليس هناك ما يزعجنا لمدة أسابيع متواصلة، هل تفهمين ما أقول؟

ـ نعم.

همست بذلك وقلبها يخفق، إنه يتحدث عن علاقة طويلة.. سيكون ذلك سهلاً.

يا إلهي، عندما سيصبح ألم الفراق لا يحتمل.

أخذ نفساً عميقاً، وعاد يقول: «طلبت منك أن تمضي العطلة الأسبوعية معي. لكنني لا أريد أن أنتظر إلى أن يحين ذلك الوقت من دون أن أراك مرة أخرى. حالما أعود إلى الفندق، سأنجز عملي مع الرجلين. علينا أن نغادر المدينة مرة أخرى. لكنني سأتمكن من العودة مساء الإثنين، سآتي إلى الشقة حوالي السادسة، لا تدعي شيئاً يحدث لك حتى ذلك الحين».

أمسك بوجهها بين يديه. علمت بما سيحدث. فإذا لم توقفه عند حده الآن، سيفوت الأوان.

ـ لا. أرجوك لا تفعل.

صرخت بهذا وهي تدفعه عنها.

نظر إليها غير مصدق: «ماذا حدث لك، يا هانا؟».

ـ كل شيء.

همست بذلك وهي تفرك ذراعيها بتوتر بينما تبتعد عنه. كانت تعلم أن عليها قطع الصلة بينهما الآن، رغم أن ذلك سيقتلها: «إنك رجل كبير الشأن وغير عادي، وقد استمتعت بمعرفتك كثيراً، لكن حياتي معقدة جداً. يجب أن تكون الليلة آخر مرة نرى فيها بعضنا، لا تسألني عن السبب، فهو لا يتعلق بك شخصياً. الأسباب تهمني أنا فقط».

وخوفاً من أن تستسلم للمشاعر التي تملكتها، أسرعت إلى الباب تفتحه. فسألها بصوت أشبه بالفحيح: «وماذا لو رفضت الذهاب؟».

ـ هل ستبقى حتى لو لم يكن مرغوباً بك؟

طرحت هذا السؤال القاسي الذي فصل بينهما كسلك مكهرب، لكنه هو من اضطرها إلى ذلك.

فأجاب وقد توتر جسمه: «أتريدين حقاً أن يكون هذا وداعاً أخيراً؟».

قالت له بصراحة رغم أنها تموت في داخلها: «نعم».

ثم أضافت: «لقد حاولت منذ البداية ألاّ أشجعك. والآن لا أدري كيف أوضح ذلك أكثر. لقد رددت لي الجميل الذي أسديته إليك ليلة الحادثة. فقد أخذتني لتناول العشاء واشتريت تلك الهدية لأليزابيت، لكن ذلك انتهى الآن».

رأت وجهه يشحب قليلاً تحت سمرة لونه: «هانا...».

نطق باسمها بهمس ينضح بالعذاب.

وبإرادة خارقة القوة، بقيت جامدة في مكانها، راجية ألاّ يرى يأسها البالغ.

ـ إذهب.. أرجوك.

حك رقبته: «هل لك، على الأقل، أن تجيبي عن سؤال أخير؟».

سألته وهي تغص بريقها: «ما هو؟».

ـ متى ستعرضينها للتبني؟

ـ سأبدأ المعاملة يوم الإثنين. يعرف مستشاري القانوني، السيد «مونك» ما علينا عمله. لولا عنادي، لما هربت ليزا، ولما كانت أليزابيث اليوم من

دون أبوين إلى جانبها، لقد احتفظت بها أكثر مما ينبغي ولعلي أحدثتُ ضرراً لا يمكن إصلاحه. لا شك أنها ستجد صعوبة في الإعتياد على أي شخص آخر.

فسألها بصوت خشن: «وماذا عنك؟ كيف يمكنك أن تتحملي التخلي عنها؟».

أغمضت عينيها بشدة إزاء العطف البادي في صوته، إنه السؤال الذي يقتلها، وهو يعلم هذا أكثر من أي شخص آخر.

قالت له بهدوء: «هذا لا يهمك لحسن الحظ. لديك قطارك لتنشئه. الوداع يا دومينيك».

وأغلقت الباب خلفه.

لقد انتهى كل شيء.

***

٥ ـ الزمرد الاخضر

استند المحامي إلى الخلف في كرسيه الدوّار، وأنامله تحت ذقنه.

ـ هانا؟ أعرف أنك تحبين تلك الطفلة وكأنها ابنتك. لكن قبل أن تتخذي أيّ خطوة لتضعيها وسط أسرة، هل فكرت في سؤال أختك عما ستشعر به فيما لو تبنيتها أنت نفسك؟

شدّت الطفلة إليها قليلاً ثم قالت باكية: «لم أستطع النوم طوال الليل بسبب التفكير في ذلك، لكنني سأحاول أن أخبر ليزا. لا أعتقد أنها ستوافق لأنها جاهدت بعنف لكي تضع حياتها الماضية وراء ظهرها. أليزابيث ستذكرها دوماً بالألم الذي تريد أن تنساه».

ـ ومع ذلك، هل لي أن أقترح أن تتصلي بها وتطرحي عليها هذا السؤال قبل أن تحضريها إلى مكتبي لتوقيع الأوراق؟

ـ أنا خائفة من أن أزيد في ألمها.

ـ هانا.. إننا نتحدث عن مستقبل طفلة بأكمله، عما هو الأفضل لها. أعطي أختك فرصة للتعبير عن مشاعرها تجاه الموضوع. عند ذلك، على الأقل، لن تضيفي مزيداً من الشعور بالذنب إلى حزنك.

ـ ماذا تعني؟

ـ أخشى أنك إذا لم تناقشي الموضوع مع ليزا، سيتملكك هاجس دائم عما كان سيحصل لو أنك فعلت ذلك. على الأقل إذا قالت لا، سيكون لديك جوابها القاطع فترتاحين من الشكوك بقية حياتك.

أدهشها إصرار المحامي على هذا الأمر، وكأنه رأى أعماق نفسها وعرف

WWW.LIILAS-ROMANCIA.COM

ما فيها حتى بدون أن تقول كلمة.

وقفت لتغادر المكتب وقد حيرتها فراسته العميقة: «سأفكر في الأمر وأعود إليك. شكراً لمقابلتك لي من دون موعد مسبق».

ـ بكل سرور.

غادرت مكتبه عائدة إلى شقتها. كان عليها أن تأخذ الطفلة إلى قيلولتها. فكرت في فتح المتحف بعد الظهر، لكنها لم تستطع احتمال ذلك، فقد وصل الفراغ الذي تشعر به في داخلها إلى مرحلة مؤلمة حتى أنها لم تعد تستطيع القيام بشيء.

لا شك أن دومينيك قد أصبح بعيداً جداً عن «لارامي» الآن. إذا عاد يوماً ما فسيكون من أجل أعماله ولن تعرف بذلك. كان التفكير في عدم رؤيته مرة أخرى يمزقها.

أما بالنسبة إلى أليزابيث..

ورغم أن هانا اعترضت على نصيحة المحامي، إلاّ أنها تعلم أنه على حق، فعليها أن تسأل أختها لإنهاء الموضوع.

قبل أن تفقد شجاعتها، أخرجت من حقيبتها رقم هاتف ليزا ثم أسرعت إلى المطبخ لكي تجري الإتصال. وبعد دقائق من الحديث كاد يغمى عليها عندما قالت أختها: «هانا؟ أيتها المعتوهة! طبعاً أنت من أريد أن تتبناها. لكنني لم أشأ أن أقترح عليك ذلك إلا إذا سألتني».

ولم تستطع هانا تصديق ما سمعته.

ـ لطالما ضحيّت، كنت أعلم أنك تحبينها، لكنني لم أشأ أن تستمري في العناية بمشكلتي إذا لم يكن هذا ما تريدينه حقاً. إنني مسرورة لأنك تريدينها، سيمكنني أن أحبها عن بُعد بصفتي خالتها، ولم يعد عليّ أن أتساءل عن حالها وعما يحدث لها.

ـ هل تعنين ذلك حقاً؟

ـ هانا.. ألم تصغي إليّ؟

ـ نعم، ولكنك أعطيتني لتوّك هديّة لا تثمّن.

واختنق صوتها.

ـ هانا. أنا آسفة جداً لتصرفي معك تلك الليلة، فقد صدمتني رؤيتك، لا غير. وعندما رأيت أليزابيث، أعترف بأنني شعرت بالسرور لأنك جعلتني أنهي مدة حملي. إنها رائعة الجمال، وستيف يعتقد إنها تشبهنا، نحن الإثنتين، تماماً.

قالت هانا وهي تضحك وتبكي في وقت واحد: «هذا صحيح».

ـ ولكن كيف ستتمكنين من تربيتها؟ ستدمر خططك في متابعة دراستك، وما تحصلين عليه من ذلك المتحف المثير للرثاء لن يساعدك على العيش أثناء أشهر الشتاء عندما يُقفل.

صرخت هانا بسعادة: «لا يهمني هذا. سأعالج الأمور».

ـ لماذا لا تبيعين الأملاك؟

ـ ماذا؟

ـ العيش فيها لم يعنِ لي شيئاً على الإطلاق، وأظن أننا سنجني المال الوفير لقاء بيعها. لقد عشنا فيها مع أبي بالشح والتقتير، ولكن بعد رحيله، لم يعد يمنعنا شيء. أنا وستيف، على استعداد للتخلي عن أي شيء مقابل بعض العون المالي. هل تتذكرين «جودي فينيغان»؟ أبوها «راي» يعمل في بيع الأراضي. إذا شئت، سأتصل به وأسأله عن قيمة أملاكنا.

سكتت هانا لحظة وهي تتذكر وعدها لأبيها. ولكن عندما فكرت في متعة الحصول على أليزابيث إبنة لها، قالت لأختها أن تفعل ما تراه مناسباً. وهكذا اتصلت ليزا براي فينغان، لتعاود الاتصال بهانا.

أثناء فترة الإنتظار، إتصلت هانا بالمحامي وتركت له رسالة مع السكرتير تشكره فيها على نصيحته الجيدة. ستزور مكتبه في المرة التالية لكي تتبنى أليزابيث بنفسها.

وبعد ساعة اتصلت أختها بها، وقد بان الكدر في صوتها: «هانا؟ خبر سيء، راي غير متفائل في العثور على شارٍ يريد المتحف أيضاً، بما أنّه مسجل على لائحة الأماكن التاريخية. قد تمضي سنتان أو أكثر قبل أن يأتي أحد يرغب

في المتحف بالذات ثم يدفع لنا ما يستحقه. قال إنه يسره أن يضعه في قائمته ليرى ما يحدث، وقد يأتي غداً بالذات من يطلب شراءه مبرهناً على أنه مخطىء. عليك أن تذهبي إلى بيته وتوقعي بعض الأوراق.

ـ سأفعل ذلك.

طمأنتها هانا قبل أن تضع السماعة. وبينما كانت تغسل الملابس، أدركت أن انتظار سنتين بعد موت أبيهما هو وقت طويل، فهما بأمس الحاجة إلى المال الآن بالذات.

وبالرغم عنها، تحوّلت أفكارها إلى دومينيك الذي طلب حقاً قانونياً ليستعمل أرضهما، أتراه متلهفاً على الأرض إلى حد يجعله يشتري أملاكهما؟

وعندما أدركت إلى أين اتجهت أفكارها، أخذت تعنف نفسها. فبعد ما عانته وهي تودع دومينيك، أن تستعيد كل شيء من جديد أشبه بالموت للمرة الثانية.

ولكن منذ اتصال ليزا، خطر لها أن السيد فينيغان قد يتمكن من التعامل بهذا الشأن مع دومينيك. وهكذا، لن تضطر إلى التعامل معه، فبإمكان السمسار العقاري أن ينوب عن أسرتها في هذه الإجراءات.

لم تكن من السذاجة بحيث لم تدرك أنه كان يأمل في أن تعطيه الترخيص الذي يسمح بمرور قطاره في أملاكها. فقد اعترف بأنه غالباً ما ينتظر إلى أن يغيّر صاحب الأملاك رأيه ويقبل بالبيع.

رجّحت ألاّ يهتم دومينيك بذلك، لكن الأمر يستحق المحاولة طالما ليس عليها أن تراه أو تتحدث إليه شخصياً.

* * *

ـ زين، أنا دومينيك، هناك أمر حدث.

تمتم بذلك وهو يضع على عينيه نظاراته الشمسية، فقيادة السيارة نحو الغرب في شمس ستغيب بعد ساعة، يسبب له صداعاً قوياً. وأضاف: «سأتأخر في الوصول إلى «تويل»، فلا تفكر، في العشاء. ماذا عن الإفطار في الصباح؟».

أقفل الهاتف قبل أن يتوجه بالجيب إلى الطريق الرئيسي متجهاً إلى حدود «يوتا». سيجيب غداً عن بقية الاتصالات التي تكدست في جهاز الإجابة أثناء العطلة الأسبوعية، أما الآن فيكفي أنه يسلك الإتجاه الصحيح.

بعد دقيقة، رن هاتفه الخليوي، فأمسك به ولفظ بشكل آلي، اسم زين.

ـ مرحباً، سيد جيرود؟

ولم يكن زين المتصل.

ـ نعم، هو يتكلم.

ـ أنا راي فينيغان، سمسار عقارات في «الارامي»، «بومينغ». إنني وكيل شقيقتين هما الآنسة «كار» والسيدة «رايت»، وقد وضعتا أملاكهما في السوق للبيع.

هانا؟ وكاد يخرج بسيارته عن الطريق. وتابع السمسار يقول: «أخبرتاني أنك سبق أن أظهرت اهتماماً بأملاكهما لتسيير خط لقطار سريع. سمعت عن هذا المشروع من أناس آخرين، وهي فكرة مثيرة. على كل حال، هاتان السيدتان فكرتا في منحك الخيار الأول للشراء قبل أن يتسجل ذلك رسمياً عندي».

رباه.. إنه يعلم أنها ما كانت لتبيع تلك الأرض إلا إذا أرغمها أمر خطير على ذلك.

كادت تلقي به عملياً خارج شقتها كيلا يعود ثانياً. إلا أنه كان يشعر، في أعماقه، أنها تهتم بأمره بشكل ما، أو، على الأقل، تهتم بمشروعه، وإلا لما اتصل به هذا السمسار. شد على الهاتف وقال: «الأمر يهمني فعلاً، لكنني خارج المدينة حالياً، لا تفعل أي شيء حتى أتصل بك».

ـ هذا حسن. سأنتظر اتصالاً منك إذن.

بعد انتهاء المكالمة، استدار دومينيك، بشكل غير قانوني، ليعود إلى «إيفانستن» في أسرع وقت ممكن. وأثناء الرحلة، ترك رسالة أخرى لزين قائلاً إنه لن يذهب إلى «تويل» على الإطلاق، وسيوضح كل شيء في ما بعد.

بعد ذلك، اتصل بعامل الهاتف يطلب منه أن يصله بالمطار. في حال لم يجد رحلة جوية مبكرة إلى «لارامي» من «إيثانستن»، سيستأجر طائرة، ويطلب سيارة للإستئجار تكون في انتظاره، إذ لم يجد الصبر الكافي ليعود بالسيارة إلى هناك قاطعاً تلك المسافة كلها مرة أخرى.

لقد آله نبذ هانا القاسي له. وبعد ترك رسالة سرية على جهاز الإجابة في هاتف السيد مونك المحامي، دفع حساب فندقه ثم غادره مجتازاً بالسيارة الولاية ليمحو من ذهنه كل ما يتعلق بها.

عندما لم ينجح في ذلك، مكث في نزل في الليلتين التاليتين. ونتج عن ذلك شعور بالعجز، وهو شعور لم يختبره منذ تلك المواجهة مع والده العابث قبل عشر سنوات.

وحتى النوم لم يرحه. فعندما استيقظ بعد ساعات، شعر بآلام نفسية لم يحتملها.

قبل هذه المخابرة الهاتفية غير المتوقعة، قرر الإتصال بمحامي هانا لكي يسأل عما حدث بشأن أليزابيث وذلك قبل أن يذهب إلى المتحف مرة أخرى. لكن جدول الأعمال هذا تغيّر الآن!

عليهما، هو والآنسة كار، أن يتبادلا حديثاً طويلاً، ولكن ليس بواسطة الهاتف أو أي شخص آخر له علاقة بالأمر. سيكون الأمر وجهاً لوجه، حتى ولو اضطر لتحطيم الباب ليدخل إليها وإلى الطفلة.

كان دومينيك يعتمد على ترحيب أليزابيث الحارّ به، فالنظرة الشغوف في عينيها الخضراوين الغاليتين، فضلاً عن ابتسامتها المغرمة، أبقياه حياً بعد أن أقفلت خالتها، ذلك الملاك المراوغ المحيّر الأخضر العينين، الباب في وجهه.

***

ـ هل الأمر خطير، يا دكتور؟

ـ لا، لقد أصيبت طفلتك بالبرد. إذا وضعت إناء التبخير في غرفتها، وأعطيتها هذا الدواء، ستشفى خلال أيام.

شكرت هانا الطبيب، وشعرت بالإرتياح لأن حالة أليزابيث غير خطيرة، ثم توجهت نحو الصيدلية.

إنها المرة الأولى التي تضطر فيها إلى أخذ الطفلة إلى عيادة الأطفال الليلية للطوارىء، لكن ضيق التنفس والسعال ظهرا عليها فجأة في المتحف، فلم تجرؤ على الإنتظار حتى الصباح من دون أن يراها الطبيب.

ـ هانا؟

سمعت صوتاً مألوفاً لرجل يناديها عندما كانت تتوجه بسيارتها إلى الموقف عند شقتها.

استدارت فجأة غير مصدقة، فقد كان دومينيك. ابتهاجها لرؤيته شتت الدفاعات التافهة التي حاولت، عبثاً، إقامتها ضد مشاعرها نحوه.

حضوره يعني أنه استلم المخابرة من راي فينيغان. وحدّثها شعور في أعماقها بأنه سيأتي بنفسه ليتحدث إليها عن بيع ممتلكاتها، لكنها لم تتوقع ذلك هذه الليلة.

ـ منذ... منذ متى تنتظر هنا؟

ـ منذ وقت طويل حتى بدأت أفكر في الذهاب إلى المتحف لأرى إن كانت هناك مشكلة أعاقتك. يبدو من صوت أليزابيث أنها مريضة.

مدت هانا يديها تخرج الطفلة من المقعد الخلفي.

ـ إنها مصابة بالبرد، وأنا قادمة لتوّي من عند الطبيب.

ـ كيف يمكنني مساعدتك؟

ـ إذا شئت أن تحضر كيس حفاظاتها وذلك الكيس الحاوي إناء البخار، أكون شاكرة.

ـ طبعاً.

وصعد خلفها السلم.

أدخلت المفتاح في قفل الباب بسرعة كي لا تتيح له الفرصة ليساعدها فيلمس يدها. بعد تلك الليلة، أصبحت تخاف أن تشعل جسدها أقل لمسة منه.

ـ هل أملأ إناء التبخير من الحمام أم من المطبخ؟

طرح سؤاله بنعومة كأنهما أمضيا طيلة العطلة الأسبوعية معاً... أو كأنما لم يحدث بينهما أي مشهد وداع على الإطلاق.

صرخت من غرفة الطفلة: «من المطبخ». لا تريده أن يرى ملابسها الداخلية المعلقة في الحمام لتجف.

عندما أعدت أليزابيث للنوم، دخل إلى الغرفة ووضع إناء البخار على المنضدة. ثم ناول هانا الدواء وانحنى يقبل الطفلة، وسمعته يتمتم قبل أن يغادر الغرفة: «ليلة سعيدة يا حبيبتي».

عرفته أليزابيث فازداد صراخها لمدة دقيقة. لكن هانا أخذت تلهيها حتى جعلتها تأخذ دواءها، ثم أعطتها زجاجة عصير. قاومت الطفلة رضع الزجاجة في البداية، لكن هانا أصرّت عليها حتى أذعنت أخيراً وأخذت ترضع العصير.

سارت على أطراف أصابعها نحو الباب ثم أطفأت النور. ساد سكون مريح، لكن نوعاً آخر من العواطف نشأ في داخلها منذ دخول دومينيك إلى غرفتها، محدثاً في نفسها خيبة أمل.

تلهفت إلى أن تلمسه، إلى أن يحتضنها مرة أخرى.. إلى متى ستتظاهر بعدم المبالاة؟

بعد أن أخذت نفساً عميقاً يهدّىء من تلهفها إليه، وجدت الشجاعة لتدخل غرفة الجلوس راجية أن تتمكن من إظهار فتور لا تشعر به على الإطلاق.

وجدته جالساً، بجسمه الكبير القوي العضلات، في كرسي أبيها المفضّل، براحة واسترخاء بالغين. نظر إليها بعينيه السوداوين النافذتين متأملاً ملامحها وجسمها بالبنطلون الجينز والبلوزة الفضفاضة. وتسارعت خفقات قلبها، فتساءلت إن كان يسمعها.

ـ أتريد شراباً خفيفاً أو قهوة؟

ـ ربما في ما بعد. أما الآن فأريد أن أعرف سبب لهفتك إلى النقود

بحيث تريدين بيع أملاكك؟ بما أنك ذهبت إلى المستشار القانوني لتسجلي إسم الطفلة للتبني، فهل قررت أختك أن تعطيك ابنتها مقابل مبلغ باهظ من المال؟ هل هذا هو سبب تصميمك على الانفصال عن أرضك؟

فصرخت: «لا، لا شيء من هذا القبيل، يا دومينيك. يمكنني أن أفهم كيف وصلت إلى هذا الإستنتاج. لقد ذهبت لأرى السيد مونك المحامي، فنصحني بالتحدث إلى ليزا عن تبني الطفلة بنفسي قبل المباشرة بأي أمر آخر، وأعترف بأنني دهشت لتفهمه الوضع بهذا الشكل. لولا اقتراحه هذا، لما وجدت الشجاعة للإتصال بأختي. والحمد لله أني فعلت ذلك».

وأضافت بلهجة عاطفية: «أرادت ليزا أن أتبنى الطفلة بنفسي، وهذا ما أسعد قلبي».

لمعت عينا دومينيك في ضوء الغرفة الخافت: «هذا أحسن خبر سمعته منذ وقت طويل».

أومأت هانا وهي لا تشك في إخلاصه: «لكنها كانت تعلم أنني لا أملك المال الكافي لتربية الطفلة والعناية بها، فاقترحت عليّ أن نبيع الأملاك ونقتسم الثمن بيننا. إن أختي عملية وعصرية أكثر مني، قالت إنها وزوجها بحاجة إلى عون مالي لإنهاء دراستهما الجامعية. وأنا بحاجة إلى المال لأكون أماً متفرغة للعناية بأليزابيث، والمتحف لا يفي بالغرض، لذا رأيت الأمر منطقياً، وهكذا اتصلت براي فينيغان. ولسوء الحظ، وجد أن سنتين أو أكثر ستمران قبل أن يأتي من يطلب شراء الأرض والمتحف معاً».

وفجأة رأت دومينيك ينهض واقفاً، وهو يكمل كلامها: «وبما أنك تريدين المال الآن، فكرت في الاتصال بي».

فشعرت بالخوف من النظر إليه.

ـ نعم. أخبرتني مرة بأنك تشتري أحياناً أملاكاً من أجل مشروع قطارك السريع عندما لا يكون هناك بديل آخر.

فتمتم يقول وهو يقترب منها: «لقد قلت ذلك فعلاً، لماذا لم تتصلي بي بنفسك؟».

وبدون وعي منها، أخذت تتراجع مبتعدة عنه. لكن ساقيها اصطدمتا بحافة منضدة: «لأنني أردت أن يكون الامر مجرد معاملة تجارية بيننا. فهمت أنك لا تريد الأملاك لنفسك، وإنما مجرد وسيلة لهدف. هذا ما دفعني لأطلب من السيد فينيغان أن يضع عقداً يكون فيه وكيلنا، نحن الاثنان، سيطلب منك سعر السوق بالإنصاف. أما من ناحيتي، فسأدفع لك فائدة إلى أن يجد شارياً يأخذ منك الأملاك، على أن يسمح لك بتمرير خط القطار. كنت... كنت أرجو...».

لا يمكنها أن تنظم أفكارها حين يقف قريباً منها بهذا الشكل.

وتابعت تقول: «افترضت أننا، نحن الإثنين، قد نستفيد من هذه الصفقة بواسطة السمسار بدون أن تضطر إلى إزعاج نفسك بالعودة إلى «لارامي». وكما سبق أن قلت لي، ما زال عليك أن تتصل بمئات من الناس، وربما بالألوف، كلما توغلت إلى الغرب، وآخر ما أريده هو أن أبعدك عن عملك».

رفع يديه إلى وجهها يحتوي براحتيه وجنتيها، مرغماً إياها على رفع وجهها حتى لم يعد لديها خيار سوى مقابلة نظراته المتفحصة.

- إذن فأنت لم تقولي لي وداعاً لأنك لا تريدين رؤيتي مرة أخرى، وإنما لأنك لا تريدين أن تشغليني عن عملي.

- نعم.. لا.. إنك تلوي كلماتي، يا دومينيك.

حاولت ألاّ تنظر إليه خوفاً مما قد يقرأه في عينيها: «كنت أعني أن يكون وداعاً بيننا».

- لأنك لا تهتمين بي شخصياً؟

فتمسكت بهذه الحجة: «هذا صحيح».

- إذن، قبل أن أرحل، أنت لا تمانعين في عناق بسيط نختم بها عقد العمل بيننا، فأنا أصافح الرجال عادةً. ولكن بما أنك امرأة، فسأتصرف بشكل استثنائي.

- لا، أرجوك يا دومي..

لكن بقية توسلها المذعور اختنقت عندما عانقها بقوة بدائية، قاطعاً عليها أي أمل في النجاة.

أخذت هانا تئن تحت عنف عواطفه المحمومة، وتفجرت مشاعرها فمزجت كيانها بكيانه.. مشاعر سمحت له بأن يسلبها ارادتها فلم تعد تفكر بالرفض أو الاعتراض.

لم يخبرها بأنه يحبها. لم يعدها بشيء، لكنه يريدها. كانت تعرف هذا ولو لم يقل ذلك. أرادت أن تشعر بذراعيه حولها منذ وقت طويل رغم علمها بأن هذا سيسبب لها، في النهاية، الألم والجراح.

رفعت يديها تطوق عنقه وقد أفقدتها بهجتها وعيها.

ضمها بين ذراعيه متأوهاً. وأحست بشوقها يزداد... أما حبها الذي يحرقها فكان أقوى من أن تستمع لذلك التحذير الخافت من داخلها.

لن تراه أبداً بعد هذه الليلة، لكن خلال هذه الساعات المتبقية من الظلام، ودّت التعبير عن الحب الذي تكنّه لهذا الرجل غير العادي.. حب حياتها العظيم والوحيد.

- هانا...

صاح باسمها مرة بعد مرة، ثم قال: «ما أكثر ما عليّ أن أقوله لك، يا حبي. لكني انتظرت طويلاً لكي أضمك بين ذراعيّ بهذا الشكل».

- وأنا كذلك.

اعترفت له بذلك وهي تدفن وجهها في عنقه حياء.

تخللت يداه شعرها. وشعرت بأصابعه تشتد حول خصلاتها، وصرخ بصوت منخفض أجش: «يا إلهي! لقد تعلقت بك منذ تلك الليلة التي رأيت فيها وجهك الرائع الجمال وشعرت بذراعيك حولي. ربما كنت، حينذاك، شبه غائب عن الوعي، لكن التصاقك بي بعث في شوق لا يُشبعه شيء آخر».

ثم عاد يعانقها بقوة صاعقة. وارتجف صوتها حين قالت له: «إذا تركتني ذراعاك الآن أظنني سأموت، أنا أحبك يا دومينيك».

خرج هذا الاعتراف منها قبل أن تستطيع منعه.

كانا غارقين في غمرة العواطف إلى حد ظنت معه أنه لم يسمعها، لكن يديه توقفتا عن ضمها.

رفع رأسه يحدق في عينيها وقال: «قولي ذلك مرة أخرى».

ـ لقد غيّر صدقي كل شيء، أليس كذلك؟

وحاولت أن تبتعد عنه، لكنه احتضنها أكثر فلم تستطع الحراك.

ـ بالعكس، أريد أن أسمع كل شيء.

صرخ صوت في داخلها، لا، أنت لا تريد. ولسوء الحظ كان الوقت قد فات للتراجع، فجاء اعترافها الهادىء: «أنا أحبك. أحببتك منذ اللحظة التي رأيتك فيها ممدداً على العشب، لم أشأ أن تعرف هذا لأنني علمتُ أنك لا يمكن أن تحب فتاة مثلي».

فأظلمت تعابير وجهه: «ماذا تعنين بقولك، فتاة مثلك؟».

لم تفهم لماذا شعر بهذا الغضب.

قالت ضارعة: «أرجوك، لا تتظاهر بعدم الفهم، يا دومينيك».

واغرورقت عيناها بالدموع، فجاهدت في مغالبتها وهي تتابع: «لست ساذجة كأختي التي كانت متلهفة إلى الحب، فأقنعت نفسها بأن والد أليزابيث سيتزوجها. أنت تشعر بانجذاب نحوي حالياً، لكنني لا أعتقد أن رجلاً لديه كل هذه الأحلام والمسؤوليات يقع في الحب فجأة ويتخلى عن عزوبيته لأجلي ولأجل طفلة ليست من صلبه».

ومض شيء في أعماق عينيه السوداوين، وتمتم بصوت عاطفي: «إنك مخطئة».

وقبل أن تتمكن من الجواب، أخرج من جيبه خاتماً. وأفلتت شهقة من بين شفتيها وهو يضعه في إصبع يدها اليسرى، وأخذت الزمردة الثمينة ذات اللون الأخضر الفاتح تتألق في الضوء الناعم فبهرت عينيها.

رفعت عينيها إليه، وبدأت تقول: «دومينيك..».

لكنه عانقها، قائلاً بهدوء: «ليلة الحادثة تلك، وقعت في غرام ملاك

أخضر العينين، وفي اليوم التالي وقعت في غرام طفلتها الصغيرة البريئة الخضراء العينين. وبعد أن غادرت لارامي أول مرة، علمت أن عليّ الحصول عليكما معاً، وإلا لا شيء في حياتي سيكون ذا معنى مرة أخرى».

هزت هانا رأسها: «لا يمكن أن يحدث هذا لي حقاً».

وتعلقت به، غير قادرة على تصديق أنه مغرم بها وأنه اشترى لها فعلاً خاتم الخطبة.

فأجاب على الفور هامساً: «بل صدقيني. لو أنني لا أحبك، لما عدت إليك رغم المرات التي حاولت فيها التخلص مني؟».

قالت له: «أنت تعلم أن السبب الوحيد الذي جعلني أبعدك عني هو خوفي من أن تكتشف كم أحبك. ما كنت لأستطيع احتمال شفقتك عليّ حينذاك».

فأمسك أنفاسه: «الإشفاق آخر شيء في ذهني يا حبيبتي. والآن صرت أعلم أن شعورك نحوي يماثل شعوري نحوك بالضبط، متى تظنين أن أليزابيث ستشفى إلى حد تستطيع معه السفر؟».

كانت هانا متأثرة إلى حد لم تفهم تماماً ما يقول: «خلال أيام قليلة، لماذا؟».

ـ هذا يمنحنا وقتاً كافياً للقيام بما يلزم بالنسبة إلى تبنيها قبل أن نغادر البلاد.

حاولت أن تجلس: «إلى أين ستذهب؟».

ـ إلى مسقط رأسي في جنوب فرنسا.

سيأخذها إلى بيته.

ـ ولكن ليس لدي جواز سفر أو...

ـ هش.. ش.. ش...

وعانقها مرة أخرى: «سأحصل على تأشيرة سفر خاصة ورخصة وهذا يمكّننا من عقد زواجنا في «ڤينس» حيث يمكن لأمي أن تشهد عرسنا. إنني متلهف إلى أن تتعارفا، ستكون أليزابيث أول حفيدة لها، ستعشقكما من

أول نظرة. أما بالنسبة إلى أختي نيكول وأسرتها، فستتملكهم البهجة. في الواقع، ستتقاتلان على رعاية الطفلة أثناء قيامنا برحلة شهر العسل. إنها أختي، وهما في الثالثة، سيجدان ابنة خالهما الأميركية الشقراء رائعة للغاية!

ـ كم أنا متشوّقة لرؤية كل أقاربك.

ارتجف صوتها، لكنها كانت مشتتة الذهن لدرجة نسيت أن تسأله عن أبيه الذي لم يذكره بعد. ملأت كلمة شهر العسل ذهنها بالصور، مرسلة البهجة في جسدها.

دفن وجهه في جدائلها الذهبية وتمتم وهو يرفع رأسه لينظر إليها: «كل شخص سيشغف بك، يا حبيبتي. أما بالنسبة إلى أسرتك، فأنا أيضاً متشوق إلى التعرف على أختك وزوجها. إذا شئت أن تدعيهما إلى عرسنا، فلا شيء يسرني أكثر من هذا. ولكن بما أن أليزابيث موضوع حساس، سأترك القرار لك».

نظرت إليه بعينيها الخضراوين: «كم أحبك لقولك هذا. في الحقيقة، أظن أنه من الأفضل إعلام ليزا بزواجنا بعد حدوثه».

ـ أنا أعتقد أن هذا قرار حكيم للغاية، يا حبيبتي، عندما نعود إلى «لارامي» يمكنك أن تعرّفينا ببعضنا البعض. إذا رضيت أختك، ربما نقيم حفلة نحتفل فيها بزواجنا وزواج أختك معاً وندعو إليها كل أصدقائكما. ما دمنا سنعيش في «لارامي»، أريد أن أتعرف إلى كل من يهمك أمره فيها.

كانت هانا تستمع بتعجب إلى خططه، كرم نفسه، رغبته في إسعاد أختها أيضاً، كل ذلك زاد في حبها له.

لكن ذكر «لارامي» أعادها إلى الواقع بسرعة. بعد الذي عرفته عنه في المجلة، بدت لها فكرة استقراره في «يومينغ» سخيفة ومضحكة: «لا أستطيع أن أطلب هذا منك، يا دومينيك، «لارامي» مختلفة جداً عن نيويورك أو فرنسا».

فأجاب وهو يداعب أذنها: «لا أتفق معك في هذا، لقد عثرت عليك في «لارامي» وهذا يجعله أعز مكان عندي على وجه الأرض».

ـ ولكن...

ـ لا أريد كلمات مثل (ولكن) هذه. لم أتوقع أن أقع في الغرام، ناهيك عن الزواج، والآن بعد أن وجدت فيك المرأة التي لم أكن أعتقد أنها موجودة، أريد أن أجعلك سعيدة بقدر ما جعلتني.

ـ سأكون سعيدة معك أينما كنا.

ثم أضافت من أعماق قلبها: «ولكن فكر، يا دومينيك.. ستكون تضحية كبرى منك إذا عشت في لارامي بشكل دائم، لا شيء هنا! ستكرهها مع الوقت، وتكرهني معها».

واهتز صوتها.

ـ أنت مخطئة، يا هانا! فقد وقعت في غرام امرأة من «يومينغ». وحالما أجعلك زوجتي، أريد أن أصبح جزءاً من حياتك، أسرتك هنا، جذورك. هل يعجبك إذا أقمنا بيتاً على أرضك؟

شهقت برقة قبل أن تفلت من بين ذراعيه لكي تنهض واقفة. كان من المستحيل أن تفكر ما دامت بين ذراعيه. إنهما بحاجة، حالياً، إلى مناقشة أمرٍ بالغ الأهمية، وهذا يعني وضع مسافة بينهما.

ـ أنت تعرف مسبقاً جوابي على سؤالك هذا، أشعر وكأنني في حلم خلاّب حيث توشك كل رغبات قلبي أن تتحقق. لكن الزواج يعني أن عليك الوصول إلى تسوية، بحيث يتملك الرضى الطرفين. لديك أسرة في فرنسا، فلا تتظاهر بأن جذورك هناك غير عميقة كجذوري هنا.

مرت على وجهه سحابة غم، ونهض بجسمه القوي ووقف أمامها. وعندما مد يده إليها، ابتعدت عنه، وقالت: «لا يمكنني التفكير عندما تلمسني، يا دومينيك».

تمتم بابتسامة ماكرة قبل أن يجذبها إلى ما بين ذراعيه: «هذا حسن... لا أريدك أن تفكري يا حبيبتي، إستمعي فقط. أنا طبعاً أشعر برابطة قوية تشدّني إلى تراثي، لكن ماضي مقترن بآلام كثيرة. هذا ما جعلني أنتقل للعيش في نيويورك».

أية آلام؟ ما دامت المحبة تشوب علاقته بأمه وبأخته، لا بد إذن أن امرأة أخرى سببت له الآلام مما جعله غير قادر على البقاء معها في البلاد نفسها.

امرأة غنية مثقفة ورائعة الجمال، امرأة تتحلّى بكل ما يريده رجل في مثل مركزه ونفوذه في شريكة حياته.

ألهذا السبب اختار هانا؟ لأنها تمثل عكس كل ما رغب فيه ذات يوم؟ فتاة متوسطة المظهر تعرف مكانها المناسب؟ فتاة تشعر في غير بيئتها بأنها في غير مكانها الطبيعي؟

أترى عرفانه بجميلها امتزج بغريزته القوية لحماية أليزابيث، فجعلاه عازماً على عرض هذا الزواج الصعب تصديقه؟

تابع، غير منتبه إلى اضطرابها: «رغم روعة نيويورك إلا أنها لم تصبح قط موطناً لي قبل ليلة الحادثة التي أخذتني فيها بين ذراعيك. لم تجعلني امرأة قط أرغب في غرس جذور جديدة. لكنّ لقائي بك غيّر حياتي، يا حبيبتي».

فهمست: «الأمر نفسه بالنسبة إليّ، أنا... أنا أحبك كثيراً، يا دومينيك. كل ما أرجوه هو ألاّ تندم على قرارك هذا».

انبعث التوتر من جسمه المتين البنية، فقال بصوت ينبض بالمشاعر: «كيف يمكن أن أندم بينما أنت وأليزابيث حياتي كلها؟ بمناسبة الحديث عن ابنتنا المستقبلية، سمعتها تسعل، فلنذهب ونخبرها بأننا على وشك أن نصبح أسرة».

وضع يديه على كتفيها من الخلف، يحثها على الإسراع إلى غرفة الطفلة.

كانت أليزابيث مستيقظة، لكنها لم تبدُ محتقنة الوجه كما كانت قبل وضعها في سريرها، وحالما رأت دومينيك، أخذت تلوّح بذراعيها. وبعد لحظة تغضن وجهها موشكة على البكاء لكي تستولي على انتباهه الكامل.

فهمت هانا سبب مظهرها هذا، فأغرقت في الضحك. كما اهتز جوّ الغرفة الصغيرة بقهقهة دومينيك الخشنة.

ـ تعالي إليّ، يا أليزابيث.

وحمل الطفلة يضمها إلى صدره، فسكتت عن البكاء على الفور.

ـ لقد جعلتني أمك أسعد رجل في العالم لموافقتها على أن تصبح زوجتي. هذا يعني أنك ستصبحين ابنتي الصغيرة، ما رأيك؟

فبدت نظرة المحبة في عيني الطفلة وابتسامتها، مما جعل هانا تظن أنها فهمت ومنحته رضاها القلبي. اشتبكت نظرات دومينيك فجأة بنظرات هانا، فعكست مشاعر لا يمكن أن تكون غير الحبّ.

لا شك أن أليزابيث ستغدو أسعد طفلة على وجه الأرض حين سيصبح دومينيك جيرود أباً لها.

أتراه يحبها هي بهذا القدر؟

لكنها رفضت أن تكذب على نفسها بالنسبة إلى حقيقة شعوره نحوها، أما إلى متى سيحبها فهذا السؤال الذي لم تستطع الإجابة عليه.

فما أن ينتهي شهر العسل حتى يبدأ سحر «لارامي» بالتلاشي.

ارتجفت وهي تفكر بالحياة عندما تفقد هي أيضاً سحرها بالنسبة إليه؟

ـ ماذا جرى لك يا هانا؟

أخرجها سؤاله من أفكارها المعذبة، فقالت وهي تمسك بحاجز سرير الطفلة: «لا شيء».

كان يتكلم إلى الطفلة بالفرنسية، لكنه سألها:

ـ لا تدّعي بأن كل شيء على ما يرام عندما لا أرى أنا ذلك، ماذا يجول في ذهنك؟

قالت من دون أن تنظر إليه:

ـ أرى فقط أن عليك أن تراجع نفسك بالنسبة إلى الاستقرار في «لارامي». لعل نيويورك ليست مكانك المفضل، ولكنه مكان عملك، أنا وأليزابيث سنكون سعيدتين تماماً بالعيش معك هناك. ورغم أنني لم أذهب لزيارتها بعد، إلاّ أنني أعرف أنها أكثر مدن العالم إثارة، هناك الكثير مما ينبغي رؤيته وعمله، فأنت لا تسأم فيها أبداً و...

فقاطعها: «سنذهب إلى هناك لقضاء الإجازات من وقت لآخر. لكنني سبق وصممت على أن يكون بيتي هنا».

لا يا حبيبي، بيتك الحقيقي في فرنسا. أنت تقول هذه الأشياء لترضيني فقط.. قالت ذلك في نفسها.

وقبل أن تنهار أمامه، اعتذرت لكي تعيد ملء إبريق البخار بالماء.

إنه يحاول إنه يقوم بكل ما في وسعه لكي يسعدها.

لكنها تعرف شخصيته الحقيقية ومن يكون. وهذه المعرفة تجعلها واثقة من أنه سيدرك ذات يوم عمّا تخلّى لكي يتزوجها.

عندما يحدث ذلك، سيرغب في الانتقال. ولكنه سينتقل وحده فتتحطم حياتها إلى النهاية.

البديل هو أن تعيد إليه الخاتم الليلة وتقطع العلاقة بينهما إلى الأبد.

ولكن كيف يمكنها ذلك وهي تحبه إلى هذا الحد ولا تستطيع تصور حياتها من دونه؟

***

٦ ـ نور حياتي

«عزيزتي ليزا،

أرسل إليك هذه الرسالة بالبريد السريع من «سان بول دي ڤينس» في فرنسا، وهكذا لن تتساءلي أين أنا. عندما تستلمينها سأكون قد تزوجت رجل أحلامي، وستحصل أليزابيث على أب».

تجنبت هانا ذكر أي شيء عن التبني، سيأتي هذا في ما بعد عندما تلتقي مع ليزا في مكتب المحامي.

«السبب الوحيد الذي منعني من الإتيان على ذكر دومينيك جيرود من قبل هو أنني كنت أرجو، إنما لم أصدق قط أنه سيعرض عليّ الزواج، وعندما فعل، حدث كل شيء بسرعة بالغة. ما زلت أشعر أنني في حلم.

إلتقينا ذات مساء بعد أن تعرّض لحادث بسيارته الجيب قرب النهر خلف المتحف، ووقعت في غرامه بشكل جنوني. فبعد أن خطط هو وأصدقاؤه، لإنشاء قطار سريع عبر الولايات المتحدة، كان يريد رخصة لبناء خط حديدي عبر أرضنا. وحصل ما حصل. أما بالنسبة إلى أليزابيث، فقد وقع في حبها منذ النظرة الأولى. أظنه تزوجني فقط ليصبح أباً لها.

سوف نحتفل بزفافنا في كنيسة صغيرة مليئة بصور وتماثيل من القرن الخامس عشر. اكتشف دومينيك هذه الكنيسة أثناء جولة له في الريف حين كان غلاماً. اسمها «كنيسة القديسة أليزابيث»، تصوري هذه المصادفة!!

ڤينس هي مسقط رأسه، وهي تطل على بساتين الزيتون والبرتقال، بالإضافة إلى أزهار من كافة الانواع تمتد إلى البحر. والنسائم رقيقة هناك مُشبعة بالعبير، ثمة كلمة واحدة يمكن أن يوصف بها هذا الجزء من العالم، وهي (الروعة).

تملك أسرة دومينيك (دار حواء) لأدوات التجميل. وهم يصنعون عطورهم الفاخرة من الأزهار التي تنمو على تلالهم، علمت اليوم أن هذه المنطقة في فرنسا تدعى (جنة الله). وتدفع الجمال هنا إلى البكاء.

أتتذكرين رسومات «ماتيس» ذات الخلفية الحمراء التي اشتريتها وعلقناها في غرفة الجلوس؟ حسناً، رأيت اليوم «معبد ماتيس»، إنه أبيض وزجاج نوافذه ملوّن وقد صممه ماتيس بنعشه وزخرفه. يقولون إنه أجمل أعماله، ويمكنني أن أرى السبب».

وشذّت عن الموضوع مرة أخرى.

«كانت أمه تمضي إجازة في منزل شقيقته في «أنتيس» عندما اتصل بها ليفاجئها بخبر حضورنا للزواج. خططت لحفلة تقام الليلة حيث سأجتمع بأسرته لأول مرة، أظنهم رائعين كصديقيه «آليك» و«زين». لقد أخذانا اليوم إلى الغذاء في مكان مشرف على البحر».

أخذت يدها ترتجف مما جعل الكتابة صعبة. فمنذ أسبوع واحد فقط، جاء إلى شقتها طالباً أن يعرف سبب عرض أملاكها للبيع. والليلة هي الليلة السابقة لعرسهما. هذا شيء لا يصدق! إن دومينيك من الرجال الذين تدفعهم حيويتهم الفياضة وسعة حيلتهم إلى تنفيذ أهدافهم بسرعة البرق.

انتقلت نظراتها إلى السرير الأثري ذي المظلة، وإلى الثوب الأسود البسيط دون كمين الملقى على اللحاف المحشو بزغب البط. كان هدية من دومينيك لم تستطع أن ترفضها.

«إسمحي لي بتقديم هذه الهدية هذه المرة، يا حبيبتي».

وضع هذه البطاقة مع العلبة التي حملتها إليها الخادمة منذ لحظات.

ضمت البطاقة إلى قلبها، لقد طلب منها السماح مرات لا تحصى. أمس، عندما تعاركت عدة خادمات للظفر بخدمة أليزابيث، أخذها لشراء ثوب الزفاف. اختار داراً لتصميم الأزياء حيث أحضرت لهما المسؤولة أثواب عدة تلائم قوام هانا، إنما لا تحمل بطاقة بثمنها.

وحين ارتدت ثوباً طويلاً من الشيفون الأبيض مع الدانتيل، طويل

الكمين مزموم الخصر، اشتعلت عينا دومينيك كجمرتين. وتنقلت نظراته ببطء من جسمها إلى وجهها وشعرها قبل أن يومىء للمرأة موافقاً.

أوهنت نظرته الملتهبة ساقي هانا، وتوهج وجهها للذكرى، فأسرعت تنهي رسالتها.

«بعد شهر العسل، الذي جعله سراً، سنعيش في «الارامي». دومينيك متشوّق للتعرف إليك وإلى ستيف، كما يأمل في إقامة حفل لعرسينا معاً».

لقد طلب مني أن أضع لك هذا الشيك بثمن نصف الأملاك التي هي نصيبك).

كان مبلغاً سخياً يفوق ضعفي المبلغ الذي توقعتا الحصول عليه.

عندما قالت ذلك لدومينيك، مصممة أن تمزقه إذا لم يسترجعه، تصلّب فكه. فقال لها إن المال ليس ثمن الأملاك فقط، وإنما مقابل قبول ليزا بأن تجعلها أماً لأليزابيت، فهي لؤلؤة لا تثمّن. وهو مستعد لدفع أي ثمن ليتبناها، وإذا رفضت هانا إرسال الشيك مع رسالتها سيرسله بالبريد.

عند ذلك لم تنطق هانا بكلمة، وازدادت حباً له لعدم أنانيته التي لا تُصدّق.

«منحته حصتي هدية الزفاف وهو سيبني عليها بيتاً».

هذا ما يقوله حالياً، وانقبض قلبها خوفاً بأن ذلك لن يحدث أبداً. فهو مهما قال، لن يتمكن من الانسلاخ عن الترف الذي وُلد فيه. لقد شكّل هذا الترف جزءاً من شخصيته.

يوماً ما، سيمر قطاره السريع في الفناء الخلفي. هذا هو الحدث الوحيد الذي تستطيع هانا أن تضمنه.

«ولكن، كما أخبرتك في بداية هذه الرسالة، ما زلت أعاني من مشكلة تصديق أن أياً من هذا حقيقي.

إهتمي بنفسك وبزوجك، وسأتصل بك حالما أعود إلى البيت».

مع حبي
هانا

بعد أن كتبت الرسالة وضعتها على المكتب لإرسالها بالبريد، ثم أسرعت إلى الحمام لتغتسل.

بعدها خرجت من الحمام وارتدت ثوبها الجديد. ودخلت صوفي من الغرفة الملحقة بغرفتها حاملة أليزابيث. وصوفي امرأة في الستينات من العمر أمضت مع أمه مدة طويلة، فجعلها دومينيك مسؤولة عن الطفلة التي بدا عليها الرضا وهي تمدّ يديها إلى هانا.

لا شك في أن دفء عواطف صوفي قد ألهاها، كانت أليزابيث تلبس ثوباً فاخراً جديداً وردي اللون مطرز الحواشي وذا «قبة» من الدانتيل.. وفي قدميها حذاء لم تر هانا مثله بياضاً، وجورباً مزيناً بالدانتيل، حاولت الطفلة انتزاعهما. هذا أيضاً من كرم دومينيك.

تصورت أنه تسوّق بنفسه. العرس هو أهم حدث في حياتهما، ولكن عندما يستقران، يجب أن تتوقف الهدايا. فقد تعلمت أليزابيث أن كل ما عليها فعله هو النظر إليه، فيدفعه التعبير في ملامحها إلى تحريك الأرض والسماء لأجلها.

قالت صوفي بإنكليزية ثقيلة اللكنة: «يقول دومينيك إنه سيأتي لرؤيتك والصغيرة بعد لحظة. إنه يدعوكما بملاكيه. نحن سعداء جداً لأجلكما، لقد حدثت معجزة حقيقة منذ أن ذهب ليعيش في أميركا، لم أظن قط أنني سأراه بهذه السعادة مرة أخرى».

والآن، هل الوقت مناسب لتلقي عليها أسئلة عن ماضيه؟ لم تكن هانا تحب الكلام عن الآخرين على الإطلاق، ولا تريد أن تفعل هذا الآن.

قالت هانا، منتعشة لكلمات المرأة وشغفها الواضح بدومينيك: «هي أشبه بمعجزة بالنسبة إليّ، أيضاً».

ـ إنك تحبينه جداً، وهذا أمر جيد للغاية.

دفنت هانا وجهها في عنق الطفلة، وتمتمت:

ـ ربما أكثر مما يجب.

واغرورقت عيناها بالدموع، فبسطت المرأة ذراعيها في الهواء: «ما من

شيء يقال له (حب أكثر مما يجب)».

ـ آمين، يا عزيزتي.

إلتفتت هانا وأليزابيث ناحية دومينيك، حين سمعتا صوته. كانتا تعيشان لأجله، وسيبقى دوماً محور عالمهما.

عندما اقترب منهما، اشتبكت عيناه بعيني هانا وطوقهما بذراعيه، واقترب منها معانقاً إياها عناقاً دار له عقلها. وعندما تركها اهتز كيانها بعنف شوقاً إليه.

ـ لقد شعرت بذلك. ألا تعلمين أنني أعاني نفس شوقك، يا حبيبتي؟

ثم همس بصوت متألم:

ـ تذكري فقط أن الغد يكاد يحلّ. بعد العرس، سأختطفك إلى حيث ننفرد ببعضنا. لقد حلمت بهذا منذ اللحظة التي نظرت عيناك الملائكيتان في عيني لأول مرة، وأعدك بأن أبدد هذا الألم.

ـ دومينيك..

صرخت باسمه وقد منعها التأثر عن الكلام بسبب المشاعر التي تفجرت بينهما.

ـ كل ما عليك أن تفعليه الليلة هو أن تحذي حذوي.

تحذو حذوه؟

ولأمر ما، بدت لها هذه الكلمات نذير شؤم وهي تصل إليها من خلال باب غرفة الجلوس في تلك الڤيلا المبنية في القرن التاسع عشر. وعلى الفور، رأت هانا والد دومينيك الذي كان يكلّم رجلاً أصغر منه.

وفي تلك اللحظة بالذات، شعرت بدومينيك يجفل قبل أن تشتد ذراعه حول خصرها بشكل غير متوقع. رغم أنه لم يتحدث عن أبيه أو يذكر وجوده، فقد استطاعت أن تميّز السيد جيرود الكبير.

لم يكن بطول إبنه إلاّ أنه كان وسيماً، نحيف الجسم، ذا شعر داكن تتخلله خصل فضة أما مشيته فبنفس روعة الرجولة والحنكة اللتين ورثهما دومينيك.

كان يرتدي ثياباً رسمية للمناسبة، وهي عبارة عن بذلة كحلية مخططة وربطة عنق. ومنحها هذا فكرة عن مقدار الجاذبية التي سيتفرد بها دومينيك بعد سنين كثيرة.

عندما رافقها دومينيك إلى غرفة الإستقبال وأليزابيث على كتفه، سمعت هانا صوت امرأة يصرخ باسمه، وفي اللحظة التالية كانت والدة دومينيك تقطع الغرفة مسرعة لتعانق ابنها. وخلفها سارعت أخته نيكول، التي تماثل بجمالها الأنثوي، جمال دومينيك الفياض الرجولة.

تراجعت هانا خطوة لتسمح للمرأتين السمراوين الرشيقتين الطويلتي القامة، بأن تعانقاه وتقبلاه. فراحتا تهتفان للطفلة مداعبتين، بينما حاولت هي أن تخبيء وجهها في رقبة دومينيك.

وبعيداً عنهم، لاحظت هانا والد دومينيك يحدق في ابنه من خلال أجفان شبه مطبقة. لكنه لم يتحرك من مقعده الذي كان من طراز لويس الرابع عشر.

قالت أمه قبل أن تنهار في نوبة بكاء أخرى:

ـ ما أروع أن أراك يا حبيبي! أخبارك الرائعة جعلتني أبكي منذ اتصلت بي.

لم تندهش هانا للهجتها الإنكليزية، إذ كانت تعرف أنها إنكليزية. لكن لهجتها بدت أجنبية بين هؤلاء الفرنسيين. وبما أن دومينيك تعلّم اللغتين منذ مولده، فلا عجب في أن يحسنهما بهذا الشكل.

ـ أمي، نيكول.. أريدكما أن تتعرفا إلى نور حياتي، هانا كار. وهذه الصغيرة الجميلة هي ابنتنا أليزابيث.

لم يكن لدى هانا فكرة عن مدى ما تعرفه الأسرة عن وضع أليزابيث، لكن الوقت لم يكن مناسباً للبحث في الأمر. مرت الدقائق القليلة التالية بشكل غائم، كانت هانا، أثناءها، موضعاً لاحتضان وتقبيل المرأتين، بعطف صادق. كما وجهّت إليها الأسئلة العديدة، وكانت أليزابيث نجمة الحفل، طبعاً.

بعد انتزاع الطفلة من دومينيك على كره منها، لكي يتعرفا إليها بشكل أفضل، قدّم دومينيك هانا إلى زوج نيكول «جان جاك أرمنتيير» الذي تقدم نحوهم.

كان جذاباً جداً، ذا عينين سوداوين حادتين ممتلئتين دعابة، قبّلها على وجنتيها.

ـ مرحباً بك في الأسرة، يا عزيزتي. إنك حقاً الملاك الأشقر الذي وصفه لنا دومينيك. لقد حصلت الآن على جوابي.

سأله دومينيك هازلاً: «على أي سؤال؟».

ـ عندما سمعت النبأ المذهل بأن أيام عزوبتك أصبحت معدودة، سألت نفسي عما تمتاز به هذه المرأة الأميركية عن نسائنا الفرنسيات. وماذا لديها لتجعل دومينيك يستبدل حريته بارتباط الدهر.

بدا أن زوج نيكول يحب المزاح وقد ألقى سؤاله بمرح تام. لسوء الحظ، ظهر في صوت هانا رجفة واضحة وهي تعترف قائلة: «أسأل نفسي دوماً السؤال نفسه».

بدا الجد على وجه جان ـ جاك وهو ينظر إلى دومينيك بدهشة: «أنت لا تعلم حقاً.. بأنك رجل محظوظ جداً.. يا صديقي».

ـ بل أعلم ذلك...

تمتم دومينيك بذلك قبل أن يعانقها بحرارة. وعندما ابتعد عنها، رأت والد دومينيك يقف أمامهما.

ـ حسناً، يا دومينيك.. لقد مضى وقت طويل لم نتقابل فيه، وأظنني لست بحاجة إلى أن أسألك عن حالك.

لم ترَ هانا ما يعبرّ عن العطف، فانكمشت في داخلها.

ـ أبي؟ تبدو في حالة جيدة كالعادة. أقدم إليك عروسي العتيدة هانا كار.

فقال الأب وهو يرفع يدها إلى شفتيه: «تسرني معرفتك، يا هانا، إن لابني ذوقاً رائعاً».

ـ شكراً يا سيدي.

أطال النظر إلى وجهها وهو يقول: «تلك الطفلة التي أنجبها حبكما رائعة الجمال، سبق أن رأيتها مع صوفي».

تصلب جسم دومينيك، وأخذ يجرها بعيداً، لكن هانا نظرت إليه متوسلة وبقيت مكانها.

ـ أليزابيث رائعة، لكنها ليست طفلتنا.

فطرف بعينيه: «أحقاً؟».

ـ لا، إنها ابنة أختي، وهي مراهقة، لكن الشاب الذي أحبته ليزا، هرب. وبما أنها لم تستطع العناية بالطفلة، عرضتها للتبني. عندها أخبرتها برغبتي بتبني الطفلة، فوافقت. بعد أن نتزوج أنا ودومينيك سنتبناها رسمياً.

بدا الذهول على الرجل وقال لابنه: «هل هذا صحيح؟».

فأجاب هذا عابساً: «سأرسل إليك تقريراً بصفات بجيناتها الوراثية».

إحمر وجه الرجل وهو يتابع النظر إلى ابنه.

تملك هانا الذعر إزاء هذه المرارة الواضحة بينهما. لم تعد تحتمل التوتر أكثر من ذلك، فقد ذكرها بتلك المعارك التي كانت تدور بين ليزا ووالدها. وجاء بكاء أليزابيث في الغرفة المجاورة ليزيد الوضع سوءاً، وتعجّبت لبقائها هادئة طوال تلك المدة.

أحاط دومينيك بكتفيها، ثم قال: «هل نذهب إلى بقية الأسرة؟».

هذه المرة لم تقاومه حين قادها إلى غرفة طعام جُهزت باهتمام بالغ.

تملّك أليزابيث الخوف من محيطها الغريب، وفي سعيها للوصول إليها بسرعة، لم تجد هانا وقتاً لتظهر إعجابها بهذا الجو الملوكي الذي تتوزع فيه الأزهار في كل مكان احتفالاً بهم.

أسرعت مع دومينيك نحو أمه التي حاولت إسكات الطفلة. ورأت أليزابيث دومينيك فحاولت، كعادتها، القفز إلى ذراعيه.

فهتفت السيدة جيرود ضاحكة: «أنظروا إلى ذلك».

قالت أخته: «الطفلة شغوف بك، يا دومينيك».

اضطرت هانا للاعتراف بأنه يبدو ويتصرف كأي والد مزهوّ، وبددت ابتسامته الراضية أي توتر ساد بينهم.

عندما جلسوا حول المائدة والطفلة مطمئنة على صدره، قالت هانا: «هذا ما تفعله أليزابيث كلما رأت دومينيك؛ في الواقع، كادت تقع على أرض شقتي في تلهفها للذهاب إليه. لطالما شعرت بالخجل من الآخرين لا سيّما الرجال، لذا كان تصرفها مع دومينيك مذهلاً، وكأنها اختارته هو دون سواه ليكون أباها».

فابتسم دومينيك وقال: «كان ذلك أشبه بعلاقة غرامية من الطرفين، أليس كذلك يا حبيبتي؟».

بدت الرقة في عيني نيكول وهي تقول لهانا: «حدثينا كيف تعرفت إلى أخي الأصغر، نريد كل التفاصيل ولا تغفلي شيئاً!».

شعرت هانا نحوها بالحب على الفور. فتمتمت، عندما رأت التشجيع في ابتسامة دومينيك: «حسناً، لقد بدأ ذلك ذات ليلة...».

فقاطعها جان ـ جاك: «آه، لا يا آنسة، نريد أولاً أن نعرف بلدك، «لارامي» «يومينغ» صفيها لنا».

قالت دون تردد: «لا سبيل للمقارنة بينها وبين «ڤينس»، فهنا الجنة».

في الواقع كانت تشعر وكأنها في حلم، والخادمات يرحن ويجئن حاملات أطيب طعام ذاقته في حياتها.

وضع دومينيك يده على ذراعها فشعرت بالدفء يسري في كيانها.

ـ معك حق، يا حبيبتي، لكن «لارامي» لها جمال خاص بالغ التأثير. يجب أن تروا المتحف المكون من كوخ صغير من الخشب تديره هانا على أملاك أسرتها. إنها محطة قديمة للبريد على ظهور الخيل محاطة بأميال من الأراضي المعشوشبة.

ـ لقد نسي أن يخبركم إنها على ارتفاع سبعة آلاف قدم، الشتاء هناك شديد القسوة، والجوّ أكثر جفافاً من الجو الرائع هنا.

فقالت والدة جازلين متعجبة: «أتعيشون على ذلك الإرتفاع؟».

ـ نعم. الأرض هناك سهلية لا تسترعي الإهتمام، ما عدا الجبال طبعاً.

ـ ونبات المريمية.

أضاف دومينيك وهو ينظر في عيني هانا متمتماً: «لعلك أنت معتادة على رائحتها، لكنني لا أشبع منها أبداً».

سرّها أن يعجب برائحة نبات «يومينغ» رجل نشأ بين عطور أزهار «بروڤانس». وشرحت للآخرين بهدوء: «ولا أنا، بعد عواصف الأمطار، تعود المريمية إلى الحياة، ويصبح الجوّ نقياً معطراً بشكل رائع، حينذاك أحب أن أمتطي فرسي وأعدو بها في الأنحاء».

سمعت دومينيك يتنفس بعمق: «ظننت في البداية أن «يومينغ» مكان موحش لكن بعد أن عرفت هانا، كل ما بتّ أريده هو العيش هناك».

بدا دومينيك كممثل، فقد أقنع أسرته بأن يومينغ أعظم مكان. لكن رأي هانا كان مختلفاً.

سألتها نيكول: «أخبرينا عن فرسك، ما اسمها؟».

ـ سينامون.

أمام أنظار الآخرين، وضع دومينيك يده على يدها يعتصرها برفق: «إنها بشر تقريباً».

ـ كم كان عمرك حين تعلمت ركوب الخيل؟

ـ لا أعلم بالضبط. أظن أن أمي وضعتني على ظهر حصان عندما كنت في عمر أليزابيث، وعلمتني كل ما أعرفه. اشتركت هي وأبي في حفلات استعراض رعاة البقر، وهناك تعارفا وتزوجا.

ـ هل ما زال والداك حيين؟

ـ لا، فقد ماتت أمي أثناء ولادتها أختي ليزا، أم أليزابيث. بعد ذلك بسنوات أصيب أبي بمرض القلب، فأخذ يعمل في دار البريد إلى أن توفي.

ـ هل أختك فارسة ماهرة مثلك؟

ـ أصيب أبي بالإكتئاب بعد موت أمي، ومع الأسف لم يكن صبوراً في

التعليم. ذات يوم أعلنت أنها لن تركب حصاناً مرة أخرى.

ـ هل تركبان معاً أنت ودومينيك؟

قال وهو يغمزها بعينه: «ركبنا مرة ليلة أنقذتني».

هتفت أمه: «أنقذتك؟ هل تعرّضتَ لحادث؟».

وتألقت الأعين فضولاً.

كان دومينيك مسروراً للغاية بهذا، وقد لاحظت هانا أنه لم يخاطب أبداً أباه الذي جلس بصمت في الناحية الأخرى من المائدة، وراح يراقب كل شيء بانتباه هادىء.

ـ زين وآليك على صواب. كنت على موعد مع القدر حين انقلبت بي «الجيب» في أرض هانا.

فصرخت المرأتان في وقت واحد: «هل أصابك ضرر؟».

ـ ربما مُت لولا عروسي.

قالت هانا متحدية: «هذا غير صحيح، إنه يبالغ».

ومن دون أن تدعه يقول كلمة أخرى، أخبرت أسرته بما حدث تلك الليلة بالضبط.

ـ هانا متواضعة. تريدكم أن تظنوا أن العمل الرحيم الذي قامت به غير مهم، لكن ما أعرفه هو خلاف ذلك.

توهج وجه هانا، وأرادت أن تصحح ما قاله: «سينامون» هي التي سارت بنا، كل ما فعلته هو أني قدتها وأمسكت بك كي لا تقع عن ظهرها».

ـ آه...

وابتسم جان ـ جاك بخبث: «ها قد وصلنا الآن إلى الجزء المثير من القصة».

ـ أنت مخطىء يا أخي، أرسلتني إلى المستشفى بسيارة الإسعاف، ورفضت أي تعويض. وبقيت أسابيع لا تمنحني ساعة من وقتها! حليفتي الوحيدة كانت هذه الطفلة البريئة.

وقبل قمة رأس أليزابيث، وأضاف: «طبعاً حين تصبح هانا زوجتي

سنركب معاً على الحصان نفسه، وستجلس هي أمامي».

تملكت هانا صدمة وهي تتصور هذا السيناريو.

وتمتم زوج نيكول: «حسناً، حسناً.. الحقيقة هي أنك وقعت أخيراً، يا أخي».

وألقى برأسه إلى الخلف مقهقهاً، وتابع يقول: «أعتقد أن هانا هي المرأة الوحيدة في العالم التي قالت لك وداعاً».

فأشرق وجه نيكول بالإبتسام: «إنها قصة شاعرية للغاية، لكنني ما زلت لا أتصور كيف استطعت رفع أخي على الحصان، إنك امرأة غير عادية».

فقال دومينيك وهو يدعك رقبتها برفق: «لقد ورثت ذلك. كانت جدتها فارسة في البريد السريع على الخيل».

سألتها نيكول: «هل هذا صحيح؟».

فأومأت هانا: «كل ذلك مدوّن في يومياتها. كانت بحاجة إلى المال وما كانوا يستأجرون النساء لنقل البريد. أحتفظ بالملابس التي لبستها عندما كانت تتنكر بثياب رجل، كل صيف ألبس مثلها ثم أركب في استعراض لارامي».

ـ ما عدا هذه السنة.

أخذ دومينيك يهز أليزابيث على فخذيه وأضاف: «عليها أن تتناسى الاستعراض هذه السنة بسبب عرسنا».

قالت نيكول وصوتها يرتجف: «شكراً لله، شكراً لك لأنك ساعدته. دومينيك عزيز عليّ جداً».

هتفت الأم: «وعلينا جميعاً».

بينما حدّثت هانا نفسها سراً: وعليّ أنا أيضاً.

رفع دومينيك الطفلة في الهواء وقبل بطنها.

ـ بعد أن نبني بيتنا على أرض هانا، عليكما أن تطيرا إلى «يومينغ» مع التوأمين، سنذهب جميعاً في نزهة على ظهر الخيل، مع الصغيرة. بالمناسبة

أين التوأمان العنيدان؟ أريد أن أعرفهما بابنة خالهما الجميلة.

أجابت أمه: «إنهما يتعافيان من برد أصابهما، فكرنا في أن نبقيهما بعيدين كي لا ينقلا العدوى إلى أليزابيث».

فقالت هانا باسمة: «لقد تعافت لتوّها من برد أصابها قبل مجيئنا».

قالت هانا ذلك باسمة، فأشرق وجه نيكول الجميل: «سيجنّ الطفلان بها. أنا متلهفة لأرى ما سيحدث عندما يلتقون جميعاً».

فقال زوجها: «علينا أن نخطط لرحلة كبيرة في السنة القادمة، عندما يكبر الطفلان، سوف يستمتعان بمدينة ديزني الأميركية. آه، نعم، ولاس فيغاس، لا بد أنك زرتها مرات عدة، يا هانا».

ـ مرة واحدة في الحقيقة، كان أبي محدود الدخل.

أوضح ذلك وضعها المادي بقسوة وأضافت: «لكننا، بعد موته، بذرنا نقودنا للمباهاة، ذهبنا في نهاية الأسبوع في رحلة إلى «دينفر» و«أوماها» ثم سافرنا بالطائرة إلى جنوب كاليفورنيا لنرى البحر، وكانت أول مرة نركب فيها الطائرة. أثناء عودتنا، توقفنا في لاس فيغاس فقط لنقول إننا ذهبنا إليها. وقد خسرت قبضة من السنتات هناك في لعبة الحظ، كانت تلك حدودي كمقامرة».

وهنا انفجر دومينيك وجان جاك بضحكة من القلب، وعندما سكتا نهض جان جاك واقفاً فحمل كأسه، ونظر إلى هانا: «أحب أن أقترح نخب هانا الجميلة الرائعة عروس أخي دومينيك. دومينيك، أتمنى لكما أن تمضيا حياة سعيدة معاً».

فقالت الأم: «هذا نخب رائع».

وتبعه والد دومينيك وهو يقف: «وأنا أيضاً أتمنى لك البهجة في زواجك».

لاحظت هانا تردد دومينيك قبل أن يبتلع محتويات كأسه بجرعة واحدة، ثم ابتعد عن المائدة وساعد هانا على الوقوف: «حان وقت وضع أميرتنا الصغيرة في السرير. استمتعت كثيراً بهذه الحفلة الرائعة، إنكم لا

تعرفون مقدار شوقي للإجتماع بكم».

غصت هانا لحظة: «شكراً لكم لترحيبكم بنا أنا والطفلة».

قالت لها الأم وهي تقف بمساعدة زوجها: «هذا من دواعي سرورنا لقد دعوت الله أن يأتي يوم يجد فيه ابني المرأة المناسبة التي تكمل حياته وبعد أن قابلتك أنت والطفلة، أدركت أن الله استجاب لدعائي».

همست هانا بتأثر عميق: «شكراً لك».

ودمعت عينا الأم قبل أن تتحول إلى ابنها: «أنت محظوظ جداً يا دومينيك».

ـ أوافقك. هانا هي حياتي، تصبحون على خير جميعاً.

***

٧ ـ الشك القاتل

كانت نيكول آخر من رد تحية المساء قبل أن يرافق دومينيك هانا إلى غرفة الأطفال في الجناح الآخر من القيلا.

رغم أن الامسية مرت بشكل جيد، فقد أحست بأفكاره المظلمة بالنسبة لأبيه، ولم تستطع احتمال هذه الناحية المكتئبة من طبيعته.

أملت أن يفضي إليها بما في نفسه بعد أن تنام الطفلة، فغداً يوم زفافهما وهي لا تريد أن يشوّه سعادتهما شيء.

شعرت بالإرتياح عندما نامت أليزابيث حالما لمس رأسها الوسادة. كان يوماً حافلاً بالنسبة إليها. وبهدوء، أطفأ النور ثم خرجا على أطراف أصابعهما إلى غرفتها.

استدارت بين ذراعيه: «عزيزي...».

ـ لا أريد تحقيقات الليلة.

خنق كلمات المحبة والاهتمام هذه بين شفتيها.

كان من السهل ترك عواطفهما المحمومة تمحو العالم أجمع من ذهنيهما. لكن هانا كانت منزعجة مما رأته ظاهراً بينه وبين أبيه، فلم تشأ أن تتجاهل الأمر.

وأخيراً حاولت الابتعاد عنه. لكن ذراعيه منعتاها من الهرب.

ـ علينا أن نتحدث، يا دومينيك، لماذا هذا الجفاء بينك وبين أبيك؟ سأصبح زوجتك، وأنا بحاجة إلى أن أعلم، ساعدني على الفهم.. أرجوك.

فأخذ صدره يعلو ويهبط: «كنت أرجو ألاّ يحضر الليلة، آخر ما كنت

أريده هو أن يُشعرك بالضيق».

ـ لكنه لم يُشعرني بذلك. من الطبيعي أن يتملكه الفضول بالنسبة إلى أليزابيث. لديه الحق في أن يعلم ما إذا كانت ابنتك.

فازدادت ملامح وجه دومينيك برودة: «لا يا هانا».

ومرّ بيديه على ذراعيها قبل أن يطلق سراحها: «أعمال أبي أقل نبلاً من ذلك بكثير، لكنه لم يأخذ في الحسبان أنك بهذه الشخصية، فصدمته الحقيقة».

ـ ماذا تعني؟ هل توقع مني أن أكذب؟

أجاب بعد فترة قصيرة: «لم يتوقع منك أن تقولي شيئاً على الإطلاق، كل ما أراده هو مواجهة معي».

ـ لماذا؟

أثناء انتظارها لجوابه، جلست على طرف السرير... تخلل شعره بأصابعه السمراء: «لطالما كان أبي زير نساء».

فتأوهت هانا.

ـ رغم كثرة علاقاته غير الشرعية، لم تطلب أمي منه الطلاق أبداً. لكنهما عاشا حياتين منفصلتين حتى وإن اجتمعا معاً في سرير واحد. هل فهمت ماذا أعني؟

فأومأت وقد أذهلها ما سمعت، ليس لأن قصته تختلف كثيراً عن قصة ملايين من الأزواج المتنافرين في العالم. وإنما حزنت لأن أناسٍ من بيئات متشابهة وتراث واحد، يملكون كل ما يحتاجون لجعل حياتهم مكتملة، يهدمون حياتهم وحياة أبنائهم.

ـ هذا شيء مأساوي للغاية.

ـ نشأتي هي المأساوية لأنني أحببتهما هما الإثنان، ولكن عندما نضجت بما يكفي لأشعر بآلام أمي، فقدت احترامي لأبي وأخبرته شعوري نحوه بالضبط. إلاّ أنّه نبهني أن ليس ثمة رجل كامل وأنني سأجد نفسي، يوماً ما، في الوضع نفسه. قلت له إنه مخطىء، وإنني إذا كنت محظوظاً يوماً ما

ووقعت في غرام امرأة بمثل روعة أمي، فسأبقى مخلصاً لها. ومنذ ذلك الحين، ابتعدت عنه. أمي تتألم لأنها، رغم كل شيء، ما زالت تحبه، وكافحت في سبيل جمع شمل الأسرة. وفيما يدّعي بأنها المرأة الوحيدة التي أحبها، إلا أن تصرفاته لم تثبت ذلك قط. بطبيعة الحال، توقّع مني، كوني ابنه الوحيد، أن أدير أعمال الأسرة المختصة بالعطور التي ابتدأت منذ مئات السنين. منذ مولدي، نشأت على أنني سأستلم منه المسؤولية يوماً ما، وعندما بلغت أوائل العشرينات، لم أعد أستطيع احتمال تصرفاته رغم ظنه أنه يتخذ الحذر في علاقاته. أخيراً وصلت إلى تسوية مع أمي، أخبرتها بأنني سأدير فرعنا في نيويورك، وأعود إلى البيت لقضاء العطل والإجازات.

وأخيراً، فهمت هانا سبب إقامته في أميركا.

ـ أثناء إحدى رحلات العودة إلى نيويورك، توقفت في انكلترا لأحضر مؤتمراً لمهندسين وعلماء عملوا في مشروع النفق الأوروبي تحت المانش وهناك تعرفت إلى آليك وزين. كانا قادمين من أميركا. وما لبثت تلك المعرفة السطحية أن تحوّلت إلى صداقة متينة غيّرت مجرى حياتي، وهكذا أخبرت أسرتي بأنني تخلّيت عن مركزي في الشركة لأركز اهتمامي على مشروع القطار السريع. تضرعت إليّ أمي ألاّ أقطع كل الروابط مع أبي، فوافقت أن أكون موجوداً أثناء اجتماعات التشاور.

نهضت هانا واقفة: «لا بد أن صدمة أكبر تملكته حين أدرك أنك تخطط للبقاء في أميركا لتتزوج امرأة لديها طفل ليس من صلبك».

ـ بل تمنّى فعلاً لو أن أليزابيث ابنتي، ليتمكن من اتهامي بطيش الشباب. لديه ضعفٌ أمام النساء الأخريات، ولا يتذكر ذلك إلا أثناء وجودي. الحقيقة أنه يرجو ألاّ يكون زواجنا قائماً على الحب وحده، يا حبيبتي، لا شيء سيسره أكثر من الإعتقاد بأنك من أولئك النساء الجشعات اللواتي يحملن بطفل مني لكي يوقعنني في شرك الزواج. عند ذلك، يمكنه أن يشمت بي لغفلتي ويراقبني أتحوّل إلى نساء أخريات من دون علمك.

ـ هذا فظيع!

دفنت وجهها بين يديها. وما لبثت أن شعرت بذراعيه تجذبانها نحوه وتضمانها إلى صدره.

- ربما من الأفضل أن ننهي هذا الموضوع، ولن نتحدث عن أبي مرة أخرى. وبهذا لن يكون بيننا أسرار.

فرفعت عينيها الخضراوين إليه وقالت: «لا يا حبيبي، لن يكون».

وعاد يعانقها بشوق.

- يا إلهي! لم أشعر قط بالحاجة إليك كما أشعر الآن.

وضغط على جبينها بجبينه: «إن الجانب الأناني مني لا يريد الانتظار إلى الغد لكي أجعلك زوجتي بكل معنى الكلمة، لكن الجانب الآخر يقول إننا بعد وقت قصير سنصبح وحدنا ليل نهار ومن دون مقاطعة. أطلبي مني أن أخرج، يا هانا، ساعديني على القيام بالشيء الصحيح...».

واشتدت ذراعاها حول خصره من دون أن تؤثر فيها توسلاته، وشعرت بأنها تذوب فيه، فقالت: «وإن لم أشأ أن...».

ولكن منعها من إكمال جملتها ظهور صوفي المفاجيء على عتبة الباب حاملة بين ذراعيها أليزابيث وهي تصرخ.

- المعذرة، لكن الطفلة استيقظت فلم تجدك بجانبها.

فقال دومينيك: «لا بأس، يا صوفي، تعالي إلي يا صغيرة».

ربت على خد هانا برقة، ثم تقدّم نحو الطفلة وأخذها من بين ذراعي المرأة: «شكراً يا صوفي، سأعيدها إلى سريرها عندما تستعد لذلك».

فقالت المرأة ضاحكة: «لقد سكتت الآن بعد أن أصبحت مع بابا».

بينما خرجت المرأة، وقفت هانا في شبه غيبوبة. كانت النار تحرقها شوقاً إلى دومينيك مما جعلها تفقد كل إدراك لما حولها حتى لدموع أليزابيث.

بدت ابتسامة على وجه دومينيك وقال: «يبدو أن أليزابيث هي ملاكي الحارس الصغير، لقد سمعت صراخي طالباً النجدة، فأسرعت لإنقاذي في الوقت المناسب. وحرصت على أن تبقى أمها نقية كالثوب الذي سترتديه

غداً».

رفع رأسه وحدق في عيني هانا بقوّة: «إنني متلهف لرؤيتك مرتدية ذلك الثوب مرة أخرى، عندما نقف أمام الكاهن. لقد سلبت مني عقلي تلك الليلة حين وجدتني على ضفة النهر. لم أعد الشخص نفسه».

فقالت بعواطف متدفقة: «ولا أنا، لو أن بإمكان الأطفال أن يتحدثوا، لأخبرتك أليزابيث بالضبط ما حدثتها به بعد أن أخذتك سيارة الإسعاف».

فهمس بحثها على الكلام: «هل ينبغي عليّ أن أنتظر إلى أن تكبر لتخبرني بنفسها بتلك التفاصيل؟».

- حتى ليلة الغد فقط.

كانت تشعر باختناق في صدرها.

- انتبهي! سأطالبك بتنفيذ وعدك هذا. والآن، أريدك، أنا وأليزابيث، أن تمضي ما بقي من هذه الليلة في النوم لإنعاش جمالك، ستكونين بحاجة إلى ذلك.

والتهبت عيناه.

* * *

أمسك دومينيك بالطفلة حتى أنهت طعامها. لكنها لم تغمض عينيها، فأخذ يمرّ على حاجبيها الرقيقين بإبهامه، معجباً بملامحها الحلوة التي تذكره بهانا.

- ما زلت مستيقظة لأنك تعلمين أن غداً سيحدث ما يشبه الزلزال، أليس كذلك يا صغيرة؟ رغم كرهي البالغ للإفتراق عنك، إلا أني وأمك، بحاجة لنكون وحدنا بعد أن نتزوج. لم أتوقع أن أقع في الغرام بهذا الشكل، هل ستسامحينني إذا أردت الإنفراد بها لمدة أسبوع؟ شعوري نحوها لا يكفيه سبعة أيام رحلة في البحر الأبيض المتوسط، ولكن في تلك الفترة القصيرة سنشتاق إليك كثيراً، وسنسرع في العودة. لا تنسي أن عمتك وجدتك ستعتنيان بك كثيراً بعد ذهابنا، وستتعلمين أن تحبيهما كذلك. عندما نعود من شهر عسلنا، أتوقع أن تكوني قد عقدت صداقة سريعة مع إتيان وبيير.

هذا حسن لأنني أريدكم أن تصبحوا متحابين جداً. لا أدري أين دواؤك المهدىء ليساعدك على النوم، فلنبحث عنه.

وضعها على كتفه ثم اتجه إلى الخزانة حيث كيس الحفاظات، وتذكر أن هانا وضعته مع بعض ألعاب أليزابيث.

وجد ما يبحث عنه مدسوساً بين صفحات مجلة عن الأطفال. لا شك أنها نسيت أين خبأتها.

وبدلاً من حمام بارد يهدىء مشاعره، سيشغل نفسه عن عروسه المقبلة بالاطلاع على آخر آراء الأمهات بالأطفال في هذه المجلة.

جذب الاثنين من الكيس، ثم ألقى بالمجلة على السرير المزدوج بجانب سرير الطفلة.

ـ حان وقت النوم يا حبيبتي.

وضع المهدىء في فم أليزابيث ثم أرقدها في سريرها. وبعد أن غطاها بدثار خفيف جلس على حافة السرير حيث يمكنها أن تراه من بين القضبان.

ارتسمت ابتسامة على جانب فمه وهو يرى أجفانها تثقل وتسترخي. بعد لحظات ستغمضها، وأثناء انتظاره، مدّ يده إلى المجلة.

(إقتصاد الولايات المتحدة ـ تعرّف إلى ٢٨٩ بليونير أميركي).

تلك المقالة الحقيرة بصورها الفوتوغرافية التي أخذت خلسة.. وكاد يختنق غضباً.

لم يعلم بذلك إلا بعد أن فات أوان توقيف طبعها. لو أقام دعوى على المجلة، لاغتنمت الصحف الشعبية هذه الفرصة لاختلاق قصص عنه وعن أسرته هو في غنى عنها.

لن يتركوا شيئاً مقدساً.

نهض واقفاً لكي يمزق المجلة، وإذا بالحقيقة تتجلى له. لقد عرفت هانا شخصيته الحقيقية منذ البداية..

ـ دومينيك؟

ـ سمعت المشرف يحضركما إلى هنا. ادخلا وأغلقا الباب.

من خلال عينين مغمضتين، أخذ دومينيك يراقب آليك وزين وهما يدخلان إلى مكتب اليخت الذي جهّزه لشهر عسله، لقد فكر بكل شيء لكي يجعلها سعيدة.

لم تعش هانا حياة مريحة، لهذا أراد أن يعوّضها عن كل حرمان عانته، ويمحو كل ألم قاسته، ويحبها إلى آخر حياته.

ـ إجلسا، يا زميليّ.

بقي الرجلان واقفين، وتكلم آليك أولاً: «ما الذي يجري، يا دومينيك؟ عندما سألنا إن كان بإمكاننا أن نقيم لك حفلة وداع للعزوبية، قلت إنك لا تريد أن تقضي آخر ليلة لك بعيداً عن البيت».

ـ لقد بقيت مع أليزابيث إلى أن نامت، وعندما بدا واضحاً أنها لن تستيقظ، قررت أن أستغل آخر ليلة لي من الحرية.

هز زين رأسه: «هل من خطب ما؟ أخبرنا لمَ شعرت فجأة بالحاجة إلى إقامة حفلتك هذه لتوديع العزوبة. لمَ أيقظتنا في الساعة الثانية صباحاً فنحن بأمسّ الحاجة إلى النوم؟».

قال آليك يذكره: «كما أنك ستتزوج بعد أقل من تسع ساعات، ما الذي جرى لك؟».

أخذ يحدق إلى دومينيك بنظرات ذات معنى.

قال ساخراً من آليك الذي أخذ يضايقه: «هل من الغرابة أن أقيم حفلة وداع العزوبية».

جذب زين كرسياً جلس عليه: «دومينيك، لا بد أن لهذا صلة بأبيك. هل قال أو فعل شيئاً غير قابل للصفح؟».

سأله آليك بهدوء: «هل جرح هانا؟».

ـ نعم، لكنني أفضل عدم التحدّث عنه.

يا إلهي! كل ما أريده هو أن يتوقف هذا الألم.

ـ ماذا أقدّم لكما يا صديقيّ، يا من لم تخذلاني قط.

تمتم زين مقطباً جبينه: «بحق الله عليك، انطق يا رجل! أخبرنا ما

الذي يحزنك إلى هذا الحد؟».

فجأة تمنى لو أنه لم يتصل بهما، نزل عن كرسيه وسار نحو النافذة ينظر منها إلى المرفأ.

- لم يعد للأمر أهمية الآن. فما حدث قد حدث.. فكرت أن منظر المياه في الليل قد يعجبكما، إنه أحد أجمل مناظر العالم للتصوير.

- يا إلهي، دومينيك. إنها هانا التي قلبتك رأساً على عقب، يمكنني أن أميّز الدلائل.

إلتوى شيء في معدة دومينيك لمجرد سماعه اسمها: «لا أريد أن أتحدث عنها الآن بالذات، يا آليك».

فقال آليك بحدة: «بعد الذي فعلته «بلير» بي، أتظنني لم أفهم؟ لكن هانا ليست «بلير»، فهي تحبك من أعماقها، حبكما هذا نادر للغاية، وعليكما أن تتمسكا به. كل رجل ينبغي أن يكون له مثل هذا الحظ».

وتهدج صوته.

فاستدار دومينيك إليه كأنه اصطدم بجدار من اللهب وسأله: «هل هذا ما تسميه حظاً؟».

كان رده هذا بالغ السخرية.

وملأ التوتر الجو، فقال زين: «إذن، لن يكون هناك زفاف، وأنت تريدنا أن نعلم أولاً. أليس كذلك؟».

فتألقت عينا دومينيك بشكل خطر: «بل كل شيء سيجري حسب المخطط».

ونظر إليه زين بجرأة: «إن كان هذا شعورك، ليس لك أن تتزوج إذن».

- الطفلة تحبني وبحاجة إليّ، وأعرف أن شعورها صادق مئة بالمئة. هذا سبب كافٍ لزواجي.

فصرخ الإثنان في وقت واحد: «هذا أمر جهنمي شنيع».

- أرجيء الزفاف عدة أيام لكي يستقر ذهنك. الكل سيتفهم الأمر إذا

أردتما، مزيداً من الوقت لمناقشة هذا الأمر على انفراد.

- زين على حق، مهما كانت تصوراتك...

فقاطعه دومينيك بلهجة كالثلج: «لا علاقة لهذا الأمر بالتصورات. مهما كان مقدار ألمك للطريقة القاسية التي أنهت بها بلير خطوبتكما، إلا أنها، على الأقل، تحلّت بالشجاعة اللازمة لتكون صادقة معك. وفي النهاية، هذا هو المهم».

أخذ الإثنان يحدقان به بقدر كبير من القلق والعطف.

- هل هناك رجل آخر؟

جعله سؤال زين الساخر يشهق وقال: «لا.. ليس الأمر سهلاً إلى هذا الحد.. يا إلهي! أنا لا أصلح لمرافقة أي شخص الليلة. المعذرة لجرّكما إلى هنا، يمكنكما العودة إلى المرفأ، وسأستدعي سيارة تأخذكما إلى الفندق!».

فتمتم آليك: «إن كنت تظن أننا سنتركك وأنت على هذا القدر من اليأس..».

- لا تقلقا عليّ، لن يؤثر فيّ قليل من اليأس.

وأضاف بلهجة مروّعة وهو يخلع بعنف قميصه: «أرجو المعذرة، سأذهب للسباحة».

- هذا حسن بالنسبة إلينا نحن أيضاً، سنأتي معك.

- لا أتحدث عن غطسة في بركة على سطح المركب.

توترت شفتا زين وقال: «ونحن لم نظنك تتحدث عن ذلك».

***

هتفت إحدى الخادمات الصغيرات وهي ترى هانا في ثوب عرسها الرائع: «آه، يا آنسة! . تبدين كالملاك.. كلك بياض وذهب. سيدهش السيد دومينيك عندما يراك».

- شكراً لكلماتك الرقيقة.

أخذ قلب هانا يخفق بعنف، بدا لها مستحيلاً أن يقام عرسها أخيراً هنا. بعد أقل من ساعة ستتزوج الرجل الذي أحبته روحاً وجسداً.

ـ هناك سيارة في انتظارك في الخارج.

بعد أن سوّت نقابها أمام المرآة، التفتت هانا إلى الخادمة: «أتعرفين أين دومينيك؟».

ـ لقد ذهب إلى الكنيسة مع السيد والسيدة جيرود.

كبحت هانا خيبة أملها ونظرت بعيداً، كيلا ترى الخادمة حزنها. لعل أمه متمسكة بالتقاليد التي تعتبر أن رؤية العريس لعروسه قبل الزواج تجلب سوء الحظ.

لكن دومينيك كان يسير في الحياة تبعاً لقوانينه الخاصة، لا لقوانين الآخرين، وإذا أراد فعلاً رؤيتها هذا الصباح ما كانت التقاليد لتمنعه، وقد انتظرته هانا مقطوعة الأنفاس.

ـ هل يمكنني مساعدتك بشيء قبل أن تذهبي يا آنسة؟.

شعورها غير المبرّر بالحرمان، أنسى هانا أن الخادمة ما زالت واقفة هناك. فرفعت رأسها: «لا، شكراً. سأودع الطفلة مرة أخرى، ثم أنزل».

ـ الطفلة ليست في غرفتها، يا آنسة. بعد أن انتهيت من اللعب معها هذا الصباح، أخذها السيد دومينيك إلى الحديقة. ما زالت هناك مع صوفي، وهي مسرورة جداً.

ـ فهمت.

لكن هانا لم تفهم على الإطلاق، وتحوّلت خيبة الأمل إلى ارتباك لأنه لم يحضر حتى ليلقي عليها تحية الصباح. لو كانت الطفلة في الغرفة الملحقة لاعتبرت هذا أمراً طبيعياً.

ـ هل أنت بخير، يا آنسة؟.

قالت مراوغة: «.. أظنني أشعر بما يسمونه (توتر ما قبل الزفاف)».

فبدت الحيرة على الخادمة وقالت: «ولكن هل هذا ممكن؟ إنه رجل رائع! ألا تعلمين أن كل امرأة في فرنسا تتمنى لو كانت عروس السيد دومينيك اليوم؟ كثيرات حاولن امتلاك قلبه، فيا لخسارتهن. لقد رأيته ينظر إليك كأن لا أحد غيرك في الوجود».

همست هانا وقد تأثرت بمحاولات الخادمة للتخفيف عنها: «شكراً لقولك هذا..».

الآن بالذات كانت بحاجة إلى الاطمئنان. تمنت لو أن أمها ما زالت حية، فالعروس تشعر بالحاجة لوجود أسرتها قربها يوم زفافها.

أحزنها أنها وليزا لم تحضرا زفاف كل منهما، فوضع أليزابيث حساس ولا يسمح بذلك لسوء الحظ.

ولكن بما أن الامور كلها حلّت، فقد صممت هانا على التقرّب من أختها. وتملكها الأمل في أن تمهّد الرسالة التي أرسلتها لبداية جديدة بينهما.

قالت الخادمة فجأة وقد بدا عليها شيء من القلق: «آنستي!».

ـ أنا جاهزة.

حملت هانا «المحبس» الذهبي الذي اشترته لدومينيك ولفّته بمنديل مطرز. ثم تبعت الخادمة إلى الباب الأمامي، حيث ينتظرها جان جاك، البالغ الأناقة في بذلته الحريرية الزرقاء وعلى صدره وردة.

ـ أخيراً! تبدين كسحابة جميلة سابحة في السماء، كنت على وشك الدخول للبحث عنك. دومينيك سيقطع رأسي إذا وصلنا متأخرين. يجب أن يبدأ الاحتفال عند الساعة الحادية عشرة، لدينا عشر دقائق.

ـ آسفة، سأخبره بأن الذنب ذنبي.

فقال مازحاً: «لا تعتذري، من التقاليد أن تصل العروس بعد العريس، من الأفضل أن يظن دومينيك أنك غير متلهفة عليه. دعيه يقلق قليلاً على ما إذا كنت ستتزوجينه حقاً، فهذا يزيد الامور إثارة».

ضحكت برقة. كان جان جاك الدواء الذي تحتاجه بالضبط.

تملّكها الارتياح وهي ترى أن زوج نيكول تخلف عن الجميع ليأخذها بالسيارة إلى الكنيسة. سمحت له بأن يساعدها على الصعود إلى المقعد الخلفي من السيارة السوداء الفارهة، وهي من نوع السيارة التي كان دومينيك يقودها عندما التقط له المصور تلك الصورة.

بعد أن سوّى جان جاك ثوبها داخل السيارة، أغلق الباب ثم أسرع إلى

مقعد القيادة.

في اللحظة التي خرجا فيها من البوابة الخاصة المؤدية إلى الڤيلا، فوجئا بالصحافيين والمخبرين، فأحنت رأسها بعد أن كادت تعمى بوهج أضواء الكاميرات.

من المقعد الأمامي، كانت تسمع كلمات بالفرنسية تتدفق من بين شفتي جان جاك مما ذكرها بدومينيك. عندما استدارا حول المنعطف وانطلقا مبتعدين بسرعة، قال يعتذر: «آسف يا هانا، يعلم المصورون دائماً عندما يعود دومينيك إلى بيته. ومع أنه اختار كنيسة معزولة لعقد الزواج ووضع حراسة محكمة، لا تندهشي عندما ترين صورتكما غداً على غلاف مجلة «فرانس سوار» و«الفيغارو». إنه أكثر شعبية من أي ولي عهد في أوروبا حالياً».

وأثبتت تعليقاته هذه ما أخبرتها به الخادمة منذ دقائق. وقالت: «لا شك أنهم سيكتبون أن أليزابيث هي سبب عقد الزواج».

فأومأ مثبتاً أسوأ مخاوفها: «تفهّمك هذا شيء حسن. نصيحتي لك هي أن تبتعدي عن كل ما يتعلق بالصحافة».

ـ تعني أنني قد لا أحب العناوين التي تقول: (ملك العطور الفرنسي يتزوج فلاحة أميركية خشنة هي ملكة استعراضات رعاة البقر؟). لا تقلق، لن أقرأ أي شيء يتعلق بهذا الموضوع.

وارتجف صوتها.

بدأت تدرك الآن أنها ستتزوج رجلاً شهيراً، رغم علمها أن دومينيك لا يفكر في نفسه أبداً على هذا النحو. لا بد أن حياته كانت صعبة جداً من هذه الناحية.

فقال بإخلاص وعذوبة بالغين: «أنت المرأة التي يحبها. والآن بعد أن عرفتك، أحببتك أنا أيضاً. تذكري فقط أن لا شيء آخر يهم ما عدا شعوركما نحو بعضكما».

ـ شكراً لتذكيري بذلك.

ـ نحن متشابهان في أمور كثيرة، يا عزيزتي. كنت كيميائياً لا اعتبار له، وظّفتني شركة جيرود، فوقعت في غرام نيكول، وبمعجزة، بادلتني هي الحب وعرضت عليّ الزواج.

ـ أنت تمزح.

فهز رأسه: «لا، إسألي أي شخص في الأسرة فيخبرك بذلك. كانت أشبه بأميرة على تلة من زجاج، وكنت خائفاً من أن أركب حصاني وأصعد إليها».

فقالت بلهجة هادئة:

ـ أنا أعرف تماماً ما تعنيه.

ـ لأنها أخت دومينيك الرائعة الجمال، ومن أسرة جيرود، ستبقى دوماً، مشهورة، وتلاحقها الصحافة. ولكن، رغماً عنهم، استطعنا أن نعيش منفردين أكثر الوقت، سعيدين بولدينا، أنت ودومينيك ستجدان طريقة لتعيشا مثلنا.

ـ أقدر لك مشاركتي في أمر خاص كهذا. لا تعرف كم كنت بحاجة لسماع هذا.

ـ بكل سرور.

تمتم وهو يردّ على تحية من حاجز للشرطة مرا به، ومنع مرور مجموعة من الصحافيين كانوا يأخذون مزيداً من الصور.

في أعلى شارع متعرج، اتجها نحو كنيسة صغيرة قديمة تكاد تخفيها مبانٍ من طراز القرون الوسطى. كانت تقف على ناحيتي الطريق سيارات قليلة.

ـ آه، هذا حسن. ذاك هو عريسك يبدو عنيفاً فارغ الصبر. أعتقد أننا أدخلنا الخوف إلى نفسه، الحمد لله أنني أوصلت إليه عروسه قطعة واحدة.

رأت هانا دومينيك خارج الكنيسة طويلاً أسمر متألقاً في بذلة سوداء رسمية وعلى صدره وردتان صفراوان. كان رائعاً فبقيت دقيقة تحدق به برهبة بينما تنتظر عودة دقات قلبها إلى طبيعتها.

نزل عن الدرج إلى الشمس الساطعة متجهاً نحو السيارة بخطوات

واسعة. تملكها الذهول عندما انفتح الباب، فصعد إلى السيارة ثم عانقها بشوق.

قال جان جاك يؤنبه مداعباً من مقعده الأمامي: «مهلاً يا أخي، المفروض ألاّ تفعل ذلك قبل شهر العسل».

عندما تركها دومينيك أخيراً، كانت العينان البنيتان الرائعتان اللتان عشقتهما، مغمضتين مما جعل قراءتهما مستحيلة.

حاولت هانا التخلص من الأحاسيس التي بعثها فيها ذلك العناق، عندما قال: «إنه عرسي، يا جان جاك، ويمكنني أن أفعل ما أريد في هذا اليوم من بين كل الأيام».

ساعدها على النزول من السيارة، وسألها: «هل أنت جاهزة، يا حبيبتي؟ الكاهن ينتظر ليوحّدنا معاً في السرّاء والضرّاء، إلى أن يفرقنا الموت».

وقف جان جاك إلى جانبها، وهمس قرب وجنتها المتوهجة: «دومينيك متوتر جداً هذا الصباح، لقد أخفناه حقاً، ولكن ليس ثمة مشكلة. سيجعله هذا مسروراً بك أكثر، استمري في الإبتسام، سيتغلب على ذلك في النهاية. فتوتر قبل الزفاف يصيب كل عريس، حتى أمثال دومينيك الذي لا يُقهر».

خفف جان جاك من أهمية سلوك دومينيك، بينما تملّك هانا شعور غامض بأن ثمة شيء ما على غير ما يرام.

حدث شيء ما منذ ترك غرفتها الليلة الماضية، أمر سبب له صدمة هزته من الأعماق.

وتوقعت المتاعب أكثر مما توقعت البهجة، ومدت يدها تمسك بيده الممدودة، ثم دخلا معاً الكنيسة الرومانية.

توجهت والدة دومينيك نحو هانا على الفور مبتسمة تهديها باقة من زهور البرتقال والورود الصفراء.

ـ أتمنى لك السعادة، يا عزيزتي.

همست هانا وقد فاضت مشاعرها وهي تقبلها على الوجنتين: «أنا

سعيدة».

لكنها اهتزت في أعماقها.

لم تلحظ جمال النقوش والرسوم على الجدران. وكادت لا ترى أفراد أسرته وصديقيه زين وآليك، في تلك الكنيسة الصغيرة، عندما قادها دومينيك إلى حيث ينتظرهما الكاهن.

لو استطاعت لهربت عائدة إلى الخارج، مصرّة على أن يخبرها دومينيك بما جرى. لكنه وضع حول خصرها ذراعاً قوية لم تمنحها فرصة لذلك، ثم فات الأوان لأن الكاهن بدأ طقوس الزواج.

ـ أعزائي، لقد اجتمعنا هنا في هذا المكان المقدس لكي نحتفل بشخصين رائعين اختارا أن يرتبطا في أعظم احتفال مقدس في الكنيسة، وذلك برباط الزوجية المقدس. فلنصلّ معاً!

أحنت هانا رأسها. عندما أخذت تصلي من أجل الرجل الذي على وشك أن يصبح زوجها، ارتجفت بعنف جعل قماش ثوبها الأبيض يتموج من فتحة العنق المستدير حتى الدانتيلا التي مسحت الأرض الحجرية.

مرّ معظم الإحتفال مغشّى بالضباب. لا بد أنها أجابت في الوقت المناسب. وتملكها الارتياح عندما بدا صوت دومينيك قوياً واثقاً وهو ينطق بالقسم.

وعندما أعلنهما الكاهن زوجاً وزوجة، طلب منهما تبادل الخاتمين. فرفع دومينيك نقابها وعانقها بنفس الحب والرقة والحرارة التي أبداها قبل زواجهما.

وفجأة، شعرت بأن كل شيء سيصبح على ما يرام، عندما وقّعا على وثيقة الزواج وتقبلت التهاني من الجميع بما في ذلك قبلات من زين وآليك. قررت أن ما أصابهما، لا يعدو كونه حالة توتر ما قبل العرس ولا شيء سواه.

مرت في جسدها موجة شوق عندما جذبها دومينيك: «تعالي معي، يا سيدة جيرود. جان جاك ينتظرنا ليأخذنا إلى البيت لنغير ملابسنا».

فهمست بعاطفة محمومة:

ـ أنا جاهزة. والآن، بعد أن أصبحت زوجتك، ألن تخبرني إلى أين سنذهب في شهر العسل؟.

فتألقت عيناه بغموض:

كل شيء في الوقت المناسب.

***

٨ ـ زوجة... إنما!

نظرت هانا في أنحاء طائرة شركة دومينيك الأنيقة. لكي يتجنبا الصحافة، استقلا طائرة شركته الهليكوبتر من «فينس» إلى «نيس»، ثم إلى هذه الطائرة.

لم تستطع أن تصدق أن أياً من هذا يحدث لها.

شعرت وهي ترتدي هذا الطقم الأنيق الأبيض مع الشال ذي اللونين الأزرق والأخضر ـ الذي أصر على منحه لها كهدية الرحلة ـ بأنها أشبه بأميرة مدللة.

سبق لدومينيك أن فعل الكثير لأجلها، لا تريد مزيداً من الهدايا، الشيء الوحيد الذي تتشوّق إليه هو أن تبقى وحدها معه. رجت ألاّ يكون مكان شهر عسلهما بعيداً من هنا، فهي تحلم منذ وقت طويل بأن يصبحا معاً.

حالما سمعت صوته العميق، قفزت من مقعدها لتلقي بنفسها بين ذراعيه. لكنها جمدت في مكانها حين رأته يدخل الطائرة حاملاً الطفلة بين ذراعيه.

هوى قلبها إلى الأرض، وصرخت بذعر: «أليزابيث؟ ما الذي حدث لها، يا دومينيك؟».

ـ لا شيء، أنا من حدث له شيء، مع الأسف.

قطبت حاجبيها بارتباك: «ماذا تعني؟».

ـ بينما كنا نلعب في الحديقة هذا الصباح، اكتشفت أنني سأفتقدها

كثيراً بحيث لا أستطيع فراقها، وهكذا رتبت أمر إحضارها إلى المطار. هل لديك مانع في أن تحمليها ريثما أحضر بقية أشيائها إلى الطائرة؟

ناولها الطفلة قبل أن يتوارى، وعلى الفور أخذت هذه الاخيرة تبكي كردّة فعلها المعتادة كلما تركها دومينيك. ولكن الصدمة جعلت هانا تبطىء هذه المرة في الإستجابة إلى ما تريده الطفلة.

تملكها إحساس بأن تصرفات دومينيك خلال احتفال الزفاف لم تكن إلاّ لارضاء الضيوف.

كانت غريزتها على حق، أياً كان نوع الأذى الذي أصاب دومينيك، فقد ترك في روحه ندوباً عميقة، وإلا لما تصرف نحوها بهذه القسوة، وخصوصاً يوم عرسهما.

رفضت أن تنظر إليه وهو يرتب حاجيات الطفلة في الطائرة. ولكن، كعادة أليزابيث، ابتدأت تحدث الفوضى لتترك ذراعي هانا.

رغبت في أن تظهر غضبها، وما تشعر به من أذى، فنهضت وألقت بالطفلة على حجره بدون أن تقول شيئاً.

أمسك بمعصمها قبل أن تبتعد عنه.

ـ كنت متشوّقة من قبل لتعلمي، والآن، بعد أن أصبحنا وحدنا، ألا تريدين أن تسأليني أين سآخذك؟

كانت سخريته لاذعة للغاية، مما جعلها تشعر مجدداً بجرح في كرامتها لذلك التغيير المفاجىء فيه.

ـ كما يبدو لن يكون هناك شهر عسل، فالمسألة واضحة. لم يكن الأمر كذبة منذ البداية، هناك ما حدث فقتل حبك لي بعد أن غادرت غرفتي الليلة الماضية. أما ما لا أفهمه فهو ما الذي جعلك تستمتع بإغرائي على الذهاب معك إلى الكنيسة للزواج، بينما تشعر نحوي بكل ذلك العداء؟

اللعنة، فقد اغرورقت عيناها بالدموع. تابعت: «لماذا جعلتنا نواصل إجراءات الزواج حتى النهاية بينما كان بإمكانك أن تأمر بوقف كل شيء قبل أن نحضر إلى الكنيسة هذا الصباح؟».

أثارها صمته فقالت رافعة رأسها بكبرياء: «أنت الذي كنت تلاحقني، هل نسيت؟ وإذا بك فجأة تسخر من حبّي لك أمام الله، وأسرتك، وأفضل أصدقائك».

واهتز صوتها وأخذ صدرها يعلو ويهبط.

اكتسح جسمها بنظراته، وهو يقول بهدوء: «الأفضل أن تجلسي لأن الطائرة ستتحرك».

أحست أليزابيث بالتوتر بينهما فلم تعرف هل تبكي أم تبتسم. وتبعت هانا بنظراتها العاطفية إلى مقعدها، وما أن شدت الحزام حولها، حتى درجت الطائرة فوق أرض المطار وارتفعت في الجوّ.

نظرت هانا من النافذة تراقب البحر الأبيض المتوسط وهو يتراجع، لقد ظفرت بلمحة مختصرة عن الجنة، وإذا بذلك يُنتزع منها وتحرم منه إلى الأبد. عندما حلّقت الطائرة في السماء، نامت أليزابيث.

وضعها دومينيك في مقعد الأطفال، ثم تناول كوب فيه عصير ليمون.

لم تعد تستطيع احتمال ذلك، فقالت: «إلى متى تنوي الاستمرار في معاقبتي من دون أن تخبرني عما فعلت؟ لعل أبي كان بهذه القسوة، لكنني لم أنتظر مثل هذا التصرف منك».

ـ يبدو أننا كنا مخدوعين.

وأسرع يتجرع عصيره دفعة واحدة.

ـ كنا مخدوعين بماذا؟ لا أفهم؟

فقال بملامح كأنها نحتت من الصوان: «إلى متى كنت تنوين العيش معي قبل أن تعترفي لي أنك علمت بالضبط من أكون عندما وجدتني بجانب النهر؟».

ـ لكنني لم أكن أعلم.

قال وهو يصرف بأسنانه: «لا تكذبي عليّ، يا هانا. لقد وجدت البرهان في كيس الحفاظات».

هزت رأسها ساخطة: «ما الذي تتحدث عنه؟».

وبحركة بسيطة، مال نحو الكيس وفتح السحاب ثم أخرج مجلة (اقتصاد الولايات المتحدة).

فصرخت لحظة رأتها: «إذن كانت هناك.. تذكرت الآن. لقد أخذتها إلى عيادة الأطفال لأقرأها أثناء انتظاري أن يقوم الطبيب بفحص أليزابيث».

حدق إليها بملامح كئيبة كالأرض المحيطة بالمتحف في فصل الشتاء: «هذه النسخة صدرت قبل أن نتعارف بأربعة عشر شهراً».

ـ لكنني لم أر صورك المنشورة في الداخل إلا عندما كنت في كاراج «تورنتون» حيث أجري فحص الميكانيك لسيارتي وذلك بعد أسبوع من دعوتك لي على العشاء. أنظر إلى ظهر الغلاف وسترى الملصق الذي عليه اسمه وعنوانه.

لكنها رأت دومينيك من السخط بحيث لم يشأ أن ينظر إلى شيء.

واعترفت بصوت خافت: «لقد طلبت منه أن أشتريها لأنني.. لأنني علمت أنك سترحل في النهاية.. فأردتها تذكاراً منك».

كان جسمه منتصباً كتمثال من حجر.

ـ إذا شئت أن تعلم الحقيقة بأكملها فسأخبرك بها. بعد أن أعطاني إياها «جيم» صرت احملها معي إلى كل مكان، لأمتع عيني دوماً بالنظر إليك، وقد أخذتها معي إلى عيادة الأطفال ليلة مرض أليزابيث. وفي عجلتي لشراء الدواء وإناء للتبخير وضعتها في كيس الحفاظات ثم نسيت أمرها لأنك كنت تنتظرني أمام الشقة عندما عدت إلى البيت. وبعد ذلك لم أعد بحاجة إلى النظر إليها لأنني حصلت على الحقيقة لأحتضنها وأعشقها.

لكنه، رغم كل ما قالت، لم يكن يصغي إليها.

ـ دومينيك.. لم أحلم قط بأنك ستعرض عليّ الزواج. منذ البداية تملكني الخوف من أنك ستتركني وترحل إلى الأبد. لهذا نويت، يوماً ما، أن أعلّق هذه الصورة في المتحف بعد أن تنشىء قطارك السريع، ليمكنني، عندما أصبح عجوزاً، أن أشير إليها قائلة: «أترون هذا الرجل؟ لقد عرفته ذات يوم و... وأحببته على الدوام».

تلعثمت وهي تضيف: «والقطار السريع الذي يعبر هذه الأرض هو حلمه».

كان اعترافها هذا ينضح بعاطفة جياشة.

ضاقت عيناه باحتقار وهو يقول: «عليك أن تجعلي قصتك معقولة، لا يمكنك أن تعلقي صورة حبيبك في المتحف لتشيري إليها عندما تصبحين عجوزاً ما دمت تخططين للتخلص من أملاكك».

ارتجفت لسخريته القاسية، كان أسوأ من أي كابوس: «لا، طبعاً لا، كان ذلك قبل أن تخبرني ليزا أن بإمكاني تبنّي أليزابيث. لذا، قررنا أن نبيع الأملاك».

فقال وهو يلوي شفتيه بمرارة: «تعنين قبل أن تجدي شخصاً يمكنه أن يمنحك ما تطلبينه من ثمن. يا إلهي، لا بد أنك علمت أنني غرقت في غرامك إلى حد يمكنك معه أن تعتصري مني من المال قدر ما تريدين حتى من دون أن تحاولي ذلك».

تكلّم باحتقار ساحق، فهزت رأسها تعترض بيأس: «هذا غير صحيح، يا عزيزي.. عندما أحضرتك من جانب النهر على فرسي، لم تكن لديّ فكرة عنك. لكنني بدأت أشك في الأمر عندما طلبت تلك النادلة أن توقع لها على الأوتوغراف، وأحسست بانزعاجك منها. تصرفت كشخص اعتاد على تحمّل أشخاص مثلها منذ سنوات، ولم أفهم السبب في صمتك وعدم إفصاحك عن هويتك الحقيقية إلا بعد أن وجدت تلك المقالة. عرفت أن أسرتك تملك (دار حواء)، كان بإمكاني أن أطلعك على الحقيقة تلك الليلة، لكنني عدلت عن ذلك. لم أشأ أن أكون مثل الآخرين الذين يلاحقونك بطلب المساعدات».

ارتجف صوتها وهي تقول: «عليك أن تدرك أنني لم أتخيّل يوماً أنك ستحبني. كنت أرى نفسي نكرة، وما زلت كذلك...».

أثناء الصمت الذي تلا ذلك، بدا وجهه مظلماً. لم تظن أنه قد يبدو نائياً مبتعداً بهذا الشكل.

لم يصدق شيئاً مما قالته.

قال بصوت خطير: «عندما تلقيت تلك المكالمة من السمسار، رجعت بالطائرة إلى «لارامي». اعتقدت أنك لن تدعيني أذهب لأنك تدركين أن ما بيننا نادر.. لا يُثمّن..».

فصرخت من أعماقها: «وهو كذلك. فأنا أحبك يا دومينيك! لقد تزوجتك الليلة لأنك كل حياتي».

وهبّت واقفة.

التمعت عيناه بشكل خطر وهو يلقي بالمجلة على المنضدة. أيقظت الضجة الطفلة فأخذت تصرخ، ولأول مرة وجدت هانا دومينيك أكثر انشغالاً من أن يهتم بالطفلة.

ـ لقد خدعتني كلياً حتى رأيت هذه المجلة الليلة الماضية. حتى رأيت هذه المجلة يا هانا كار، أيها الملاك الذهبي الشعر الذي وعدني بالفردوس، بنظرة واحدة من عينيه الخضراوين الرائعتين. كان على حذاء رعاة البقر الذي لبسته أن يحذرني أنك نصف بشر وبالتالي قابلة للفساد.

فصرخت بصوت معذب: «دومينيك، أنت لا تعني ذلك حقاً!».

رأته ينظر إلى كابينة الطيار. وبحركة جريئة أسرعت راكضة إلى الباب تغلقه.

ـ ابتعدي عن طريقي، يا هانا.

كانت جوانب فمه بيضاء من التوتر. قالت تتحداه: «عليك أن ترغمني على ذلك، أعرف كيف أواجه ذلك».

انهمرت من بين شفتيه شتائم بالفرنسية.

ـ لا تدعي أليزابيث تستمر في الصراخ بهذا الشكل.

ـ أتريد أن تتهمني، بالإضافة إلى ذنوبي الأخرى، بأنني أم سيئة؟

فأفلت من فمه مزيد من النعوت التي لا يمكن ترجمتها.

ـ كيف يمكنني أن أبرهن لك عن حبي وأؤكد لك أن نقودك لم تعنِ لي شيئاً؟

كان جسدها وصوتها يرتجفان الآن.

ـ لاحظت أنك أرسلت الشيك الذي كتبته إلى أختك.

ـ لأنك أصريت على ذلك!

قال بابتسامة متكلفة: «كنت تعلمين أنني سأصرّ على ذلك».

ـ دومينيك.. حبيبي.. أرجوك لا تكن بهذا الشكل.

ـ من الأفضل أن تحملي الطفلة. إنها على وشك أن تصاب بنوبة عصبية.

ـ ما الذي تريد أن تفعل؟ أن تجلس مع الطيار بقية الرحلة إلى «دنفير»؟

ـ أنا مسرور لأنك أدركت أننا لن نذهب إلى نيويورك لنقيم في «الروف» عندي. لم أنسَ أنك طلبت العيش هناك، لكنك لن تحصلي على هذه الأمنية.

ـ ليس جديراً بأن يصدر عنك مثل هذا التعليق، يا دومينيك. أرجوك لا تفتح الباب، سيعلم ميشيل أن ثمة مشكلة بيننا. كان في منتهى الرقة معي قبل الطيران.

ـ سأخبره بأن الطفلة مريضة وأنها تريد «ماما» فقط.

راحت هانا الآن ترتجف بعنف حتى لم تعد تستطيع رؤيته من خلال دموعها: «هل يعني هذا أنك تطلب مني الطلاق؟».

فجاءها الجواب المؤكد: «كلا، لن أدع أبي يشمت بي أبداً. أما بالنسبة إلى أليزابيث، فأنا أحبها وأنوي أن أكون أباها بكل معنى الكلمة».

ـ ولكنك لم تعد تحبني.

ـ ومتى كان ذلك مشكلة؟ لقد استمر والداي في حياتهما الزوجية رغم أنهما يعيشان منفصلين. أظن أنّ بإمكاننا أن نفعل الشيء نفسه.

فأفقدها الحزن صوابها: «لن أعيش معك بهذا الشكل».

فنظر إليها نظرة اتهام وقال: «منذ دقيقة إعترفت بأنك تحبينني. يبدو أن أمي من صنف بدأ ينقرض. استمتعي برحلتك يا (حبيبتي)... هناك الكثير من الطعام والشراب في مطبخ الطائرة لك وللطفلة».

***

ـ استيقظي يا هانا، لقد وصلنا. سيارتك في الخارج.

تحركت، ثم نظرت إلى دومينيك من خلال أجفان منتفخة. كان يهز أليزابيث على كتفه.

لم ينته كابوسها بعد، فقد شعرت بطعنات حادة مؤلمة في قلبها مرة أخرى.

آخر شيء تذكرته هو هجرانه لها، وبعد أن أطعمت الطفلة زجاجة حليب لترقدها، أمضت هانا ساعات تبكي. فقد تملكها الإرهاق بعد يوم الزفاف وبعد الصدمة التي تلقتها. لم تستطع أن تصدق أنهما في «كولورادو». نهضت واقفة بسرعة، ثم أخذت تئن لأن ثيابها مجعدة. ولم تكن بحاجة إلى مرآة لتدرك مدى سوء مظهرها.

لا بد أن دومينيك أخذ أمتعتهما إلى السيارة، فقد بدا مستعجلاً للذهاب. أسرعت إلى الحمام لتسوّي من شأنها، ثم غادرت الطائرة.

كان المساء الرطب الدافىء من تموز نموذجياً في «دنفير»، نظرت حولها لتودّع الطيار وتشكره لهذه الرحلة الآمنة، لكنها لم تر له أثراً.

ومن دون أي كلمة بينهما، فتح دومينيك الباب لها، وجعلتها ملامحه السمراء الوسيمة تمسك أنفاسها قبل أن تصعد إلى السيارة. لم يكن أيّ رجل يأخذها إلى بيتها، بل زوجها وهذه ليلة عرسهما.

من المؤكد أن غضبه هدأ بما يكفي لكي يتشوّق إليها.. فقد عاشت من أجل ذلك..

بعد خمس وأربعين دقيقة قطع ذلك الصمت المهلك، قائلاً: «هنالك الطريق المؤدي إلى «فورت كولينز». يمكننا أن نتوقف لنزور أختك».

تقدم بهذا الإقتراح بنيّة سحق آمالها بليلة عرس تطلق فيها العنان لعواطفها. وقد نجح في ذلك.

ـ لن تصلها رسالتي قبل غد، أفضل ألاّ تعلم أننا لن نذهب في شهر عسل، لا أريد أن تعلم أسرتي بفشل زواجي قبل أن يبدأ.

ـ شيء مؤثر!

في المرة الأولى التي قطعا فيها الطريق بين «فورت كولينز» و«لارامي» في

ساعة، بكى قلبها لأنها لم تصدق أن دومينيك يحبها. أما هذه الليلة، فقد كان قلبها حطاماً.

من حسن الحظ أن الطفلة أصغر من أن تفهم ما يجري، لكنها يوماً ما ستكبر وستبدأ بإلقاء الأسئلة. لم تستطع هانا أن تتصور أنهما سيعيشان هكذا.

كان استمرارها في زواج من دون حب كلعنة بالنسبة إليها. كذلك الأمر حين لا يكون دومينيك موجوداً في حياتها على الإطلاق.

جاهدت بشجاعة كيلا تنهار أمامه. وفي اللحظة التي دخل فيها إلى الساحة، تركت مقعدها وفتحت الباب الخلفي لتخرج الطفلة: «هيا يا حبيبتي، فلنأخذك إلى الداخل».

صعدت بها السلم وتركت دومينيك يحضر الاغراض.

لا بد أن برودة الجوّ في لارامي مقبولة الآن. كان جوّ الشقة ممتعاً وهي تدخل متجهة إلى غرفة الطفلة: «ها نحن هنا الآن، لقد عدنا إلى البيت سالمين».

بدت على أليزابيث السعادة حين وجدت نفسها في سريرها. وخلال دقائق، غيّرت هانا ملابسها واستبدلتها بسروال قصير وبلوزة لتغسلها وتجهزّها للنوم، ثم حملتها إلى المطبخ حيث كان دومينيك يفرغ كيس زجاجات الطفلة وعلب الأدوية. ترى هل سيأتي وقت لا تتأثر فيه بجسمه الرجولي مثل بعض المراهقات؟

ـ أليزابيث تريد أن تتمنى (ليلة سعيدة) لبابا، سأنهي أنا العمل هنا.

غسل دومينيك يديه ثم مدّ يده إلى الطفلة: «همم... رائحتك رائعة، يا حلوتي، لقد أعددت لك زجاجة حليب».

كان حنانه على أليزابيث التعزية والسند الوحيدين لها.

خوفاً من أن تنهار، أخذت تعمل في الشقة، تفرغ الأكياس وتنظّف وجهها من المساحيق. وعندما انتهت، حضرت عجة وقهوة لدومينيك، إذ علمت أنه يحتاج لطعام ساخن.

رأته قادماً من غرفة الطفلة، فكان أول ما خطر لها هو أن تلقي بنفسها بين ذراعيه وألاّ تدعه يذهب أبداً. لكنها، لم تستطع أن تفعل ذلك، فأرغمت نفسها على الابتعاد عنه وهي تقول: «عشاؤك على المائدة حين تشعر بالجوع».

سألها بصوته العميق: «إلى أين أنت ذاهبة؟».

ـ إلى السيارة لأحضر حقيبتك وأفرغ محتوياتها.

ـ دعيها هناك.

فطرفت بعينيها: «لماذا؟».

ـ لأنني سأحتاجها.

شعرت هانا بصدرها يختنق: «لكن هناك أشياء للغسيل...».

ـ سأهتم بها حين أصل إلى «تويل».

فتبعته إلى المطبخ: «لن ترحل إلى «يوتا» بهذه السرعة؟».

ـ سأرحل بعد العشاء. سيارة الجيب محملّة وجاهزة للرحيل و«زين» ينتظرني غداً. أرجأت كثيراً من الأمور بسبب حفلة الزفاف، لكن عليّ أن أعود إلى أشغالي الآن.

ـ عليك ألاّ تقود السيارة الليلة! أعلم أنك مرهق، ستنام على عجلة القيادة وتُقتل.

لوى شفتيه ساخراً: «سيحل هذا كل مشاكلك، أليس كذلك؟ منذ نشرت المجلة تلك المقالة، ارتفعت ثروتي إلى خمسة وسبعين بليوناً. أظن أنك وأليزابيث ستكونان بأتم خير».

فقالت بغضب: «ليس الأمر مضحكاً».

ـ ولا زواجك مني بادعاءات زائفة.

وبينما حاولت تهدئة الألم الذي جعلها تشعر به، أنهى طعامه وقهوته بسرعة قياسية.

ـ كان الطعام لذيذاً.

قال وهو يقف بقامته الطويلة: «تحياتي للطاهي».

لم تستطع منع دموعها هذه المرة: «لا يمكنك أن تذهب بهذا الشكل، يا دومينيك».

قال متحدياً وقد توترت شفتاه: «أنت تعرف ما أعنيه».

ـ لا أعتقد أنني نسيت شيئاً. قبل أن نذهب إلى «فينس» فتحت لك في المصرف حساباً، أعتقد أن لديك كل ما تحتاجينه.

فهمست بصوت متألم: «إنها ليلة عرسنا».

ـ أتريدينني أن أذهب معك إلى الفراش قبل أن أرحل؟ يمكنني ذلك، ما دمت قد دفعت الملايين لأستحق هذا الامتياز.

كانت كل كلمة قالها أشبه بطعنة سكين في قلبها.

ثم قال بقسوة: «لكنها لن تكون من إحدى الليالي التي نويتها لك في البداية».

فاستندت إلى المائدة كي لا تسقط: «كم تنوي أن تغيب؟».

ـ أسبوع على الأقل، ربما أكثر. تعرفين رقم تليفوني الخليوي في حالة طرأ شيء.

ـ لا. هذا غير صحيح.

واستدارت تواجهه، مليئة بالألم وجرح الكرامة إلى حد لم تستطع أن تتحمله: «هل فكرت مرة في أنني لو كنت حقاً من ذلك النوع من النساء، وأنني تزوجتك فقط لأملأ يدي من أموالك لما أبقيت تلك المجلة ولمزقتها حتى لا تفضحني إن عثرت عليها؟ ما هي ردة فعلك لو أنني أريتك المجلة عندما جئت إلى شقتي تلك الليلة؟ ماذا كنت سأقول لك؟ بالمناسبة، عرفت فقط من هذه المجلة أنك جيرود الذي يملك سبعين بليون دولار. لماذا لم تخبرني بنفسك قبل ذلك؟ ما كان هذا ليشكّل أي فرق، لأنك أنت من يهمني».

سكتت لتلتقط أنفاسها: «هناك شيء علمني إياه أبي وهو أنه من سوء الأدب أن تسأل أي شخص عما يملك من مال. لذا، أحجمت عن بحث هذا الموضوع معك. كان يجدر بك أنت أن تخبرني عنه، لو شئت ذلك.

وحيث أنني لم أكن أعرف في ذلك الوقت أنك ستتزوجني، لم أجرؤ على التطرق لهذا الموضوع. فلم يكن ذلك من شأني».

أخبرتها ملامحه العابسة أنها قالت ما يكفي. لكنها بدأت الآن، وأصبح من المستحيل إسكاتها.

ـ هل كنت ستصدق أنني وجدت المجلة في كاراج تورنتون؟ هل كنت ستتابع ملاحقتي بينما تعلم بأنني أعرف حقيقة هويتك وما تساويه ثروتك؟

مزقتها ابتسامته القاسية: «لن نعرف أبداً جواب ذلك!».

ـ آه، بل نعلم، أظن أن زمان إخبارك وكيفيته ما كانا ليهمان، فالنتيجة واحدة. إن كان هناك من يهمه ويقلقه أمر المال فهو أنت. منذ اليوم الأول قاومت انجذابي نحوك لأنك مختلفٌ عن الرجال هنا. بدا لي من المستحيل أن تثير فتاة مثلي اهتمامك لأكثر من خمس دقائق. تذكّر أنك لاحقتني من دون أن تفكر في أن تخبرني بشخصيتك الحقيقية. وحالما عرفت ذلك بنفسي بطريق المصادفة، حاولت أن أقطع صلتي بك.

فقال ساخراً: «لاحظت أنك لم تحاولي ذلك بشدة، لقد طلبت من السيد فينيغان السمسار أن يتصل بي. كنت تعلمين بأنني سأعود إلى لارامي لدى أقل استفزاز أو إشارة. عندما صرت عندك حيث أردتني أن أكون، جعلت لسانك يزل بأنك تحبينني. كنت تدركين جيداً أنني أتشوق لسماع هذه الكلمات. كانت طريقتك في التصرف لتحقيق هدفك فعّالة للغاية إلى حد جعلني متلهفاً إلى الإسراع بوضع خاتمي في إصبعك».

فقالت بلهجة عاطفية: «أنت تقلب الأمور، لم أستطع منع نفسي من القول إنني أحبك. فقد خرجت الكلمات بشكل عفوي».

ـ أنت ممثلة بارعة، يا هانا.

فالتهبت عيناها غضباً: «لم أكن أمثّل! لقد أغرمت بك كما لم أغرم بأيّ رجل آخر. علمت أنني لن أكون دائماً في حياتك وأردتك أن تدرك أنك اهم انسان في حياتي. أنا مجنونة بحبك، يا دومينيك، وسأكون دوماً كذلك. كان مهماً جداً، بالنسبة إلي، أن أصدق في شعوري تلك الليلة لتعلم أنني لم

اعترف به بسهولة واستخفاف».

ـ أتعنين لأنك عذراء؟ ولكن ليس لديّ سوى شهادتك في هذا، أليس كذلك؟

فتصاعد ألمها: «هذا صحيح. ثمة أمر صغير يُسمّى (الثقة)، كان عليّ أنا أيضاً أن أثق بكلمتك وحدها».

ـ ماذا يعني هذا؟

ـ أنت لم تخبرني الكثير عن ماضيك.

فأظلم وجهه وقال بحدة: «لقد أخبرتك بكل ما هو مهم».

ـ لم تخبرني قط عن النساء الأخريات في حياتك، وأنا لم أتطفل مطلقاً. جعلني هذا أظن أن في حياتك امرأة تركت في نفسك تأثيراً سيئاً للغاية.

ـ بالعكس، كانت لي علاقات مختلفة منذ العشرين من عمري. طالت مدة بعضها، لكنني لم أسمح قط لأي امرأة أن تكون بؤرة محرقة في حياتي.

ـ هل السبب يعود إلى أن النساء كن يلقين بأنفسهن على أبيك، بينما كنت تعلم أنهن لم يحببنه، وإنما رغبنَ في أمواله وفي الفوائد التي يمكنه توفيرها لهن؟ أم كنت في أعماقك، خائفاً لأن أمك لم تحب أباك حقيقة، وإنما تزوجته لأجل ماله ومركزه فقط؟ لعل هذا ما جعلها تبقى معه طوال تلك السنوات! أو إنك خائف من لومها لانهيار حياتهما الزوجية، ولا تريد مواجهة ذلك. لذلك تركت فرنسا، لم تستطع البقاء قرب أي منهما، لهذا اخترت أن تظن بي الأسوء!».

عند هذه النقطة شحب وجهه، فصرخت به: «كلامي هذا صحيح، أليس كذلك؟».

ـ كفى!

ـ لم أفرغ من حديثي. افترضت أنني حالما عرفت شخصيتك الحقيقية، وضعت مؤامرة جهنمية لكي أوقع أشهر أعزب في العالم في شباكي وأستنزفه قدر الإمكان. حسناً، دعني أخبرك شيئاً، عندما قرأت تلك المقالة عنك شعرت بالخوف إلى حد الرعب.

فبدا عدم التصديق على وجهه، بينما تابعت هي: «هناك طبعاً، وعلى الدوام، نساء سافلات يعملن على الحصول على ما يمكنهن من أموال الرجال، والعكس بالعكس.. لكنني لست واحدة منهن! أتظن أنني كنت أريد العيش في نيويورك حقاً؟ أنت مخطىء جداً في هذا. لم أقترح ذلك إلا لأنني خشيت أن تكره الحياة هنا في لارامي بعد فترة. نحن من عالمين مختلفين، فقد زرتَ أكثر من غيرك أنحاء كثيرة من العالم. ورأيت من الطبيعي أنك، بعد فترة من الوقت، ستشعر بعزلة بالغة. لم أشأ أن أكون السبب في أن تشعر بالإرتباط بمكان واحد، فتشعر بالكراهية نحوي، وهذا ما لا أستطيع احتماله».

وتنفست بحدة.

ـ إذا انتهيت من كلامك، أريد الذهاب.

يا إلهي.. إنه يعرف حقاً كيف يؤلم الآخرين، همست بصوت معذب: «لقد انتهيت، سامحني لأنني قلت هذه الأشياء الفظيعة. أرجوك ألاّ ترحل قبل الغد.. نم واسترح قليلاً. يمكنك أن تنام على السرير وسأنام أنا على الأريكة».

فقال لها بعذوبة زائفة: «لا حاجة بك للتضحية بجمالك بعدم النوم جيداً. في الواقع، سأذهب إلى حيث الأملاك قبل أن أتوجه إلى «يوتا».

ـ ماذا؟ الليلة؟

ـ نعم، فالمهندس الذي سيضع تصميم بيتنا يحتاج إلى بعض المعلومات. وكلما أسرعت بالذهاب إلى هناك لأجيب عن أسئلته، كلما أسرع في وضع مخطط تمهيدي. إذا شعرت بالتعب البالغ يمكنني أن أنام على المقعد الخشبي في المتحف وأستيقظ عند بزوغ الفجر.

ـ لكن ذلك المقعد صلب كالصخر.

ـ أعلم ذلك تماماً.

وقبل أن تجد طريقة أخرى تمنعه بها من الذهاب غادر الشقة.

تحوّلت نحو النافذة، فرأت أنوار سيارته الجيب وهو يغادر الطريق

الخاص. لم يتلاشَ صوت المحرك إلا بعد أن وصل إلى الطريق الرئيسي، مبتعداً عنها بأسرع ما يستطيع.

لقد فهمت، هذه الليلة، كيف يمكن لإنسان أن يموت من تحطم القلب.

***

٩ ـ كفى!

قصف الرعد مصحوباً بالرياح ورائحة المطر. تركت هانا باب المتحف مفتوحاً لتشم رائحة نبات المريمية، التي تذكرها بدومينيك وحديثهما حول مائدة العشاء في منزل والديه. بدت لها تلك الحادثة وكأنها في حياة أخرى.

لمع البرق، فرأت خيالاً في المدخل. ظنت في البداية...

ـ مرحباً يا هانا، أم عليّ أن أقول السيدة جيرود؟

ـ السيد مونك.

بينما أخذت تحاول ابتلاع خيبتها لأنه لم يكن دومينيك، أزاحت كومة النشرات الإعلامية جانباً.

ـ ماذا تفعل هنا في يوم كهذا؟

ـ انتهزت فرصة الغداء لأزورك. أما زلت تديرين المتحف؟ ظننت أنك ستوظفين شخصاً آخر لإدارته بعد زواجك.

تجنبت هانا نظرته المتسائلة، وأجابت:

ـ كان على دومينيك أن يسافر أسبوعين بسبب عمله، فقررت أن أشغل وقتي في المتحف أثناء غيابه.

كان دومينيك قد أخبرها أنه سيغيب لأسبوع لكن غيابه طال لأسبوعين موحشين، من دون أي خبر عنه. ولم ينقذها من عذابها سوى العمل والطفلة.

وحصلت على ايراد كافٍ من العمل مما جعلها بغنى عن النقود التي

وضعها لحسابها في المصرف فهي لن تمسّ ذلك الحساب أبداً بعد ما قاله أثناء رحلتهما من أوروبا.

ـ أين أليزابيث؟

ـ صديقتي «إيلين» عرضت عليّ أن ترعاها اليوم، بعد أن علمت أنني بحاجة إلى نهار أملأ فيه المتحف بالبضاعة وأهتم بالفرس.

ـ وكيف حال ليزا؟

ـ سعيدة جداً بزواجها والحمد لله.

ـ أنا مسرور لأن الوضع تحسن بهذا الشكل.

ـ وأنا أيضاً. لم تكن صلتنا جيدة كما نحن الآن، وكل ذلك بفضلك يا سيد مونك.

ودومينيك... كرمه ساعد ستيف على ترك إحدى وظيفتيه، وسيمكّن ليزا أيضاً من بدء دراستها في «ولاية كولورادو» آخر شهر آب.

ـ ماذا تعنين بفضلي؟

ـ لو لم تحثني على التحدث إليها عن تبني أليزابيث، لكان الأمر مختلفاً جداً. لست مستشاراً قانونياً ممتازاً فحسب، ولكنك تفهم طباع الناس إلى حدّ محيّر، طبيعتي على الأخص.

ـ أشكرك لهذه الكلمات الرقيقة. لكنني لا أستطيع أن أسرق فكرة رجل آخر فقد اتّصل بي زوجك سراً وأخبرني أن حياتك لن يكون لها معنى إن لم تتبني الطفلة بنفسك. استخلص مني وعداً بأن أتحدث إليك عن ذلك قبل أن أقوم بأي شيء آخر.

جمدت يداها، دومينيك... ليس هناك مثيل له.

ـ متى فعل ذلك؟

ـ عندما غادر المدينة، يوم ودعتما بعضكما. بعد أن اتصل بي ليطلب مني هذه الخدمة، أدركت مبلغ حبه لك. إنه الرجل الذي يعرف طباع الناس وليس أنا.

فهزت رأسها، وقالت:

ـ لم يكن لديّ فكرة عن ذلك.

ـ أدرك ذلك. لقد جعلني أقسم على كتم الأمر. لكنه لا يعلم أنني صديق قديم للأسرة.

وغمز بعينه ضاحكاً، لكن الجد عاد إلى ملامحه عندما رأى عينيها تغرورقان بالدموع.

ـ عندما دخلت إلى هنا، لاحظت أنك شاحبة الوجه جدية بالنسبة إلى عروس مغرمة، أتريدين أن تخبريني عن السبب؟

فهمست: «لا، شكراً لك على كل حال».

لقد رأى أكثر مما يجب. الحمد لله لأنه لا يعلم بأنها لم ترَ دومينيك منذ خرج من شقتهما ليلة العرس، وأنها فريسة عذاب نفسي منذ ذلك الحين.

اتصل بها ثلاث مرات، وتركز الحديث على الطفلة ولم تستطع أن تستخلص منه أي معلومات عن مدى التقدم في مشروع قطاره السريع.

في كل مرة وقبل أن يقفل الخط، كان يطلب منها أن تضع السماعة على أذن أليزابيث لكي يخبرها بأنه يحبها. حتى الساعة، لم يكن لديه فكرة عن أنهما يمضيان أيامهما في المتحف، لذلك لم يشر إلى وقت عودته.

ـ أحضرت لك هذا، قد يساعدك على الابتهاج.

ناولها مغلفاً سميكاً.

ـ هل هي أوراق التبني؟

فابتسم: «نعم، لقد وقّع القاضي الأوراق. كل شيء أصبح قانونياً الآن. أصبحت أليزابيث لك ولزوجك».

فازدادت الدموع في عينيها.

ـ كيف يمكنني أن أشكرك لكل ما فعلته؟

ـ بأن تكوني سعيدة فقط.

ـ وأنا سعيدة.

أن يصبحا والدي الطفلة أمام القانون، معجزة ملأتها بهجة. لكن آلمتها عقوبة دومينيك التي لا تستطيع التحدث عنها مع أيّ إنسان. وقد اتصلت

أمه مرات مستعيدة أحداث العرس الرائع، محاولة أن تأخذ منها عهداً بزيارة أخرى إلى «فنس» في المستقبل القريب.

كما اتصلت شقيقة دومينيك مرات عدة، ودارت أحاديثهما حول الأطفال وقضاء إجازات الأسرة المقبلة معاً، حتى جان جاك شارك في إحدى المكالمات مرة، فأدفأت قلبها مداعباته الرقيقة.

كان الكل رائعاً معها مما اضطرها إلى التظاهر بالسعادة لأجلهم، لكنها لم تستطع أن تخدع الرجل العجوز الذي حاولت تجنب نظراته المشفقة.

قالت وهي تفتح حقيبة يدها: «أخبرني كم أدين لك، وسأكتب لك شيكاً أثناء وجودك هنا».

لم تقفل حسابها الخاص قبل أن تغادر «الارامي» مما جعلها شاكرة لذلك. لكنه هز رأسه، وقال:

ـ لقد سبق ودفع زوجك التكاليف.

طبعاً، لأن دومينيك يهتم بكل شيء دائماً.

ـ هانا؟ إذا احتجت يوماً للتحدث إلي، اتصلي بي.

ـ سأتذكر هذا. شكراً.

عندما خرج إلى سيارته، استغرقت في البكاء، ثم عادت إلى عملها في ترتيب النشرات الإعلامية، ومراجعة لوائحها. وفي الثالثة بعد الظهر تحوّل المطر إلى رذاذ، فانتهزت فرصة تحسن الجو نسبياً وخرجت لإعادة «سينامون» إلى الزريبة.

عندما أنجزت ذلك، أحضرت طفلتها واتجهت إلى البيت، وهي تتساءل كيف ستتحمل قضاء مساء آخر وحدها.

وإذا بها ترى سيارة دومينيك في الموقف، فأخذ قلبها يخفق بعنف.

لا بد أنه سمع صوت سيارتها إذ فتح باب الشقة. وبينما كان يهبط الدرجات بسرعة غريبة، متعت نظرها بوسامته ورجوليته وهو يرتدي بنطلون كاكي وقميصاً، سيسلب لبها إعجاباً على الدوام.

كان سيداً مهذباً، فتوجه إلى باب هانا ليفتحه أولاً، لكن آلماً حاداً

أوهنها عندما تحوّل إلى المقعد الخلفي ليخرج أليزابيث.

أخذ يقبّل عنق الطفلة ووجنتيها فراحت تغرّد بسعادة لا تظهرها لغيره. وبعد أن حمل كيس حاجياتها، توجّه مسرعاً إلى الشقة، بينما تبعتهما هانا من بعيد.

- إنه الوقت الذي تعود فيه ابنتي إلى «بابا». لديّ خطط لهذا المساء، يا حبيبتي.

أغلقت هانا الباب، فنظر إليها بفتور: «أين كنت؟».

إزاء هذا السؤال، تلاشى أي أمل لديها في أن الفراق رقّق قلبه قليلاً، فعضّت شفتها لتمنع نفسها من الصراخ بغضب أعمى.

- في العمل، مثلك.

من الغريب أن صوتها بقي هادئاً.

فتوتر فكه، وقال.

- لقد اشتريت الأملاك لتبقي في البيت وتكوني أماً لأليزابيث طول النهار. لا أريدك أن تخرجي أنت أو الطفلة إلى المتحف بعد الآن، وغداً سنضع في الصحيفة إعلاناً نطلب فيه شخصاً يديره. الأفضلية لشخص متقاعد يحب الناس، ويريد شيئاً ممتعاً يمضي به وقته حتى يصبح الجوّ شديد البرودة.

كان هذا بالضبط الشخص الذي ارادته هانا لإدارة المتحف. فقالت: «عند توظيفه، سيكون عليّ قضاء عدة أيام هناك لتمرينه على العمل».

- طبعاً، حالما يأتي ذلك اليوم، سأرتب أمر بقائك في البيت والعناية بأليزابيث.

ثم أخذ يداعب الطفلة حتى أغرقت بالضحك. وعندما رأته هانا يبتسم متجاوباً معها، شعرت بقلبها يذوب.

- هل هي بحاجة إلى زجاجة حليب الآن؟

- لا، ليس قبل النوم.

- هذا حسن، فكرت في الذهاب للسباحة.

- السباحة الآن؟

- نعم، في فندق «اكزكيتيف إن» بركة سباحة داخلية وبركة صغيرة مدفأة للأولاد.

عاد إليها شعور الإختناق في صدرها.

- لا أظن... أن هذا.. لا أنا ولا الطفلة نملك...

- إذا كنت قلقة بشأن ملابس السباحة، فلا حاجة بك إلى ذلك. لقد توقعت ذلك، فإشتريت واحداً لك وآخر للطفلة من متجر الهدايا في الفندق. كنت متلهفاً للسباحة مع أليزابيث.

تمسكت هانا بأقرب كرسي خلفها كي لا تسقط.

- أنا واثقة من أنها ستستمتع بذلك.

- يبدو من لهجتك أنك لن ترافقنا.

عندما نظرت إليه، لم تستطع أن تفهم الشعور بالاكتئاب الغريب المختلط بشعور آخر اللذين رأتهما في عينيه.

- كنت بعيداً لفترة طويلة وأفضّل أن تكوني هناك في حالة أصيبت الطفلة بخوف مفاجيء.

إذن لهذا السبب فقط طلب منها مرافقتهما؟ وتمنّت هانا لو أنها استدعت الشرطة تلك الليلة للإبلاغ عن صوت بوق السيارة في أملاكها. بهذه الطريقة، ما كانت لتراه أو لتعرف هذا الألم المبرّح في قلبها.

- سآتي طبعاً لأتفرج.

- لكنك لن تسبحي.

- ليس الليلة!

ما دام يعتقد أنها غدرت به، فلن تجد بهجة في أي شيء. ألقى نظرة عادية على وجهها وجسمها قبل أن تستقر نظراته على المغلف في يدها.

- ما هذا؟

أعطته إياه وهي تحوّل عينيها عنه. لن تحتمل هذا الزواج المهزلة أكثر، إن بقيت موضع شك لديه.

ـ أثناء فتحك للمغلف، سأسوّي مظهري وأتبعك إلى السيارة بعد دقائق.

إرتدت بنطلون جينز نظيفاً وكنزة، ثم أسرعت تخرج من الشقة وتهبط السلم. مدّ يده ليغلق الباب، فكانت لهذه اللمسة الخفيفة من ذراعه الخشنة فعل النار إذ ألهبت كيانها.

لعله شعر بالشيء نفسه لأنهما وصلا إلى الفندق وقد ساد الصمت بينهما. حالما وصلوا إلى البركة ناولها الطفلة والكيس.

ـ ملابس السباحة في الداخل. ألبسيها ثوبها أثناء تغييري ملابسي وسأقابلك هنا بعد دقائق.

ومن دون انتظار جوابها تركها مع أليزابيث.

تمتمت هانا تحدّث الطفلة: «هيا نعثر على مكان لأبدل لك ملابسك. بعد دقائق ستأخذين أول درس في السباحة».

علقت كيس حاجيات الطفلة في كتفها، ثم اتجهت إلى الناحية البعيدة من الغرفة بينما دار رأس الطفلة الذهبي باحثاً عن دومينيك.

كانت بركة الأطفال قرب الناحية غير العميقة من البركة الكبيرة فرأت بعض الأسر هناك. رأت آباء وأمهات يلعبون في الماء مع أولادهم، فاغرورقت عيناها بالدموع.

هل لديهم فكرة كم هم سعداء الحظ لانتماء كل منهم إلى الآخر ناهيك عن متعة صحبة الواحد منهم للآخر؟

سلخت عينيها عن هذا المشهد ومددت أليزابيث على أحد المقاعد المستطيلة حيث بإمكانها أن ترتدي لباس البحر الجميل الذي اشتراه لها.

يتمتع دومينيك بذوق رائع يجعل كل ما يلبسه يبدو أنيقاً خلاباً. لديه عين ناقدة لما هو جيد حسن المظهر، حتى بالنسبة إلى الطفلة، ونظرت إلى لباس البحر الآخر بدافع الفضول. اختار لها «بيكيني» أسود. لم يكن أبوها ليسمح لها أبداً بارتداء هذا النوع من الملابس، ولكنه الذي اعتادت أن تختاره ليزا لتغيظ أباها.

من جهة أخرى، قد تلبسه هانا إن كانت ستسبح وحدها مع زوجها، لكنها لن تقبل بأن تعرض جسدها أمام الناس بهذا الشكل. في الماضي اعتادت على ارتداء لباس بحر متواضع من قطعة واحدة. كانت، كأمها، تخجل كثيراً من السباحة بثوب مكشوف.

لحسن الحظ أخبرت دومينيك أنها لن تسبح الليلة. التهب وجهها وجسدها عندما فكرت في أنها كانت سترتدي هاتين القطعتين الفاضحتين أمامه. لكان الأمر مختلفاً لو أنه ما زال ينظر إليها بحب. وضعت الكيس ومحتوياته جانباً ثم أخذت تغير حفاظ أليزابيث قبل أن تلبسها لباس البحر.

ـ سيناسبك تماماً وستبدين فيه جميلة.

وقبلتها على أنفها ثم حملتها إلى حافة بركة الأطفال. وضعت أصابعها في الماء فوجدته دافئاً.

ـ ستحبين هذا كثيراً يا أليزابيث.

ـ وأنا كذلك.

جاءها هذا الصوت العميق المألوف من خلفها مباشرة. التفتت هانا لترى دومينيك يسير في الماء متجهاً نحوهما.

لا بد أنه سبح قليلاً في البركة الكبيرة أولاً. بدا أشبه بإله إغريقي قديم يصعد من البحر، وقد ردّت المياه شعره البني القاتم إلى الخلف فيما قطرات من الماء تلتصق بجلده البرونزي.

مرة أخرى صعقها جمال الرجولية فيه حتى لم تعد تتنفس. لم تعرف أليزابيث ماذا تفعل أمام هذا المثال الرائع للرجولة الذي ركع على ركبتيه ليضعها معه في الماء وهو يتحدث إليها بالفرنسية.

لم تصرخ، بل نظرت إليه برهبة، تماماً كما فعلت هانا قبل أن تنتبه لنفسها. وبسرعة ذهبت تحضر لنفسها كرسياً وضعته عند حافة البركة حيث يمكنها رؤيتهما.

أدار الطفلة على ظهرها ببطء. وكلما ترك رشاش الماء يسقط على وجهها كانت تضحك بصوت مرتفع.

- أنت تحبين هذا، أليس كذلك يا صغيرة؟

وجعلته الثقة الكاملة في عيني هذه الطفلة المركزتين عليه يبتسم ابتسامة مدمّرة، فيما شعرت هانا بغصة في حلقها. لقد اعتاد أن يبتسم لي بهذا الشكل... امتلأ قلبها بالألم فتأوّهت بحسرة. لم تكن تدري كيف ستنتهي هذه الليلة بعد أن يترتب أمر منامة كل منهما على حدى. وبعكس والدة دومينيك، علمت هانا أنها لن تستطيع أن تعيش حياة زوجية منفصلة. وإذا ما استمر دومينيك بالتصرف على هذا النحو سوف تقصد السيد مونك المحامي لتبدأ إجراءات الطلاق، مع ترتيب أمر زياراته لأليزابيت. ولكن بدا لها هذا التفكير فظيعاً لا سيما وأن المحامي أحضر اليوم أوراق تبني أليزابيث. أما الطفلة فتعبد أباها الجديد كما إنه شغوف بها، فالرباط الذي بينهما رائع للناظرين، وهما حالياً يمضيان وقتاً رائعاً. علّمها أن تحرك رجليها، وكان تقدمها ملحوظاً، فأخذت تكرر رش الماء على وجهه. عكست ضحكاته العميقة استمتاعه. وأخيراً، أخرجت هانا منشفة سميكة من الكيس وسارت إلى حافة البركة.

- أكره أن أقطع عليكما هذا. ولكن وقت نوم أليزابيث قد حان.

رفع دومينيك رأسه فالتقت عيناه بعينيها.

- هل الوقت متأخر إلى هذا الحد؟

- كنتما مستمتعين جداً، ونسيتما مرور الوقت، لماذا لا تسبح قليلاً في البركة الكبيرة، بينما ألبسها ثيابها؟

فأجاب وعينيه مغمضتين: «هذه فكرة حسنة، هيا عودي يا حبيبتي إلى ماما».

رفع الطفلة المبتلة إلى هانا لتلفها بالمنشفة، ثم انطلق إلى البركة الكبيرة بسرعة الصاروخ.

عاد دومينيك إليهما بعد عشر دقائق. كانت أليزابيث مستقرة في مقعدها في السيارة مع زجاجة حليب، ولاحظت هانا من جانب عينيها أنه ارتدى قميصاً أزرق. لقد استحم للتو، فشمت رائحة عطر الليمون تفوح

منه.

يا إلهي، ما أروع شكله ورائحته! وتشبثت بجانبي مقعدها من دون وعي. لقد اخطأت حين خرجت معه.

جلس دومينيك خلف عجلة القيادة.

- لقد أحضرت بعض الرسوم الاولية من المهندس. قبل أن تنامي الليلة، أريدك أن تنظري إليها لتري ما يعجبك منها. يتوقع منا أن نضع بعض الإضافات أو التصحيحات، ولك الحرية في أن تكتبي على الرسوم.

أصغت هانا إليه، ولكن كل ما سمعته هو «قبل أن تنامي»... بدا واضحاً أنه سيستمر في هذا الزواج لأجل أليزابيث ليس إلاّ. ويبدو أن ابتعاده عن هانا هذين الأسبوعين قد زاده صلابة، وقرر أن يحذو حذو والديه في طراز حياتهما. ولكن هانا ما كانت لتحتمل هذا، غير أنّها أمسكت عن قول أي شيء قبل أن يصلوا إلى الشقة. وضع دومينيك الطفلة في فراشها ومعها زجاجة الحليب، ثم جاء غرفة الجلوس حيث هانا تنتظره على الأريكة.

وقف منتصباً ويديه على وركيه وعينيه على اللفافة العريضة الموضوعة على الطاولة.

- لم تفتحي اللفافة بعد، لم يحدث أن كبحت امرأة أعرفها فضولها حتى الآن.

كانت هذه طعنة أخرى.

- لكنني لا أشبه أياً من النساء اللاتي عرفتهن. أما بالنسبة إلى النظر إلى هذه الرسومات المعمارية فأنا لا أجد فائدة في ذلك.

تكلمت بهدوء، فرفع حاجبيه ساخراً.

- وأخيراً تعترفين أن لديك حلم من نوع آخر.

فأومأت: «أعترف بذلك، ولكن حسب قولك، كان حلماً فقط، بدون جوهر أو تماسك، رغم كل شيء. ولهذا لن تكون مفاجأة إذا طلبت الطلاق يا دومينيك».

جمد في مكانه، بينما تابعت هي تقول: «لقد أمضيت أسبوعين أفكر، وأنا أتحمل اللوم الكامل لفشل زواجنا. كان عليّ أن أتحدث إليك عن تلك المقالة حالما رأيتها. من الطبيعي بالنسبة إلى أي رجل أو امرأة لهما الخلفية نفسها، أن يكونا يقظين باستمرار خوفاً من صيادي الثروات. لقد أخبرني جان جاك أن نيكول هي التي عرضت عليه الزواج لأنه خاف أن تظن أنه يريد ثروتها إن طلب منها الزواج. أدركت، بعد فوات الأوان، أن هذا معقول جداً، عندما علمت بإقترافي ذنب الإغفال واللامبالاة. كان لك كل الحق في أن تظن بي الأسوأ، خصوصاً باعتبار ظروفي التافهة وفقري. أفهم سبب فقدان ثقتك بي، ولهذا سأعيد إليك حريتك. سبق وبعنا لك الأملاك، وهي ملكك الآن لتفعل بها ما تريد. أنا وأليزابيث سنتابع العيش في هذه الشقة، وستكون دوماً أباها ويمكنك أن تراها متى شئت».

«هنالك إعلان في الصحيفة وضعه زوجان يريدان مربية لولدهما البالغ ستة من العمر. إذا أحضراه إلى هنا يمكنني أن أرعاه مع أليزابيث. لن تحصل على صديق فحسب، بل سيكون بإمكاني أن أبقى في البيت وأحصل على بدل معيشتي. حسب معرفتي بك، أعرف أنك ستدفع كل تكاليف معيشة الطفلة، وهذا جيد. سوف أرى السيد مونك عند الصباح، وأخبره بألاّ يضع أي شرط مسبق لنفقة المطلّقة المعتادة. من غير الضروري أن تطالب بحق رؤية إليزابيث».

نزعت الخاتمين من إصبعها ووضعتهما قرب لفافة الأوراق، قائلة: «هاك. في بعض المجتمعات من العالم، ما علينا سوى أن نقول (نحن طالقان)... فيتم الطلاق».

تناولت حقيبة يدها ونهضت وهي تضيف: «لسوء الحظ، في هذه البلاد، نعيش في ظل قوانين تجعل الطلاق أكثر تعقيداً. على كل حال، في حالتنا، ليس ثمة مشكلة حقيقية لأن زواجنا لم يتم بالكامل ولهذا ستنتهي الأمور بشكل جيد».

وقبل أن ينتبه، سارت نحو الباب وفتحته قائلة: «سأمكث هذه الليلة

في منزل إيلين. إذا طرأ شيء، ستجد رقم هاتفها قرب الهاتف في المطبخ. سأعود في الصباح قبل رحيلك إلى مكان مجهول. الوداع».

لعلها سمعته يناديها، لكنها نزلت السلم وتحركت بالسيارة. لم تشك هانا في أنه سيلحق بها ويمنعها من هجره، لولا وجود أليزابيث. في الواقع أعاقته ظروف خارجة عن سيطرته. الليلة، سيتأمل في الحقيقة، فليست كل النساء مثل أمه. هذه المرأة لا تريد الاستمرار في حياة زوجية سيئة.

حياة زوجية سيئة؟

وأطلقت هانا ضحكة غاضبة، لم يكن بينهما زواج. وكفى!

* * *

ـ هانا؟

هنالك شخص يناديها من مدخل المتحف. التفتت.

ـ آليك؟

ما دام هنا فهذا يعني أن دومينيك في الخارج. تملك هانا الذهول البالغ لرؤيته، حتى أنها كادت تسقط عن الكرسي.

همست وهي ترتجف: «شكراً».

ـ هل أنت بخير؟

ـ نعم.

لكنها لم تكن كذلك.

ـ هل... هل دومينيك معك؟

ـ لا، كنت أرجو أن أجده هنا.

شعر جزء منها بالارتياح لأنها لم تكن تحتمل مواجهة معه تملؤها بالتوتر. لكن جزء آخر منها تحطم.

لم تر زوجها منذ ذلك الفجر الفظيع حين عادت من بيت إيلين منذ أكثر من أسبوع وقد اندفع بشكل عاصف من غرفة الجلوس دون أية كلمة، ثم رحل بسيارته الجيب تاركاً خاتميها ولفافة أوراق الرسومات الهندسية على الطاولة دون أن يمسها.

وبينما أسرعت لتتفقد الطفلة التي كانت نائمة في سريرها، سمعت أزيز عجلات سيارته رغم أنه كان على مسافة لا بأس بها من البيت.

- لم أنتبه إلى أنك كنت في سيارتك أمامي.

- لقد ناديتك عدة مرات لكن ذهنك كان بعيداً.

فاحمر وجهها وعنقها، فيما تابع: «أين الملاك الصغير؟ كنت متشوقاً إلى اللعب معها».

- إنها في البيت مع أختي.

ارتجف صوتها، وتحولت نظراته إلى بطانية متدلية من ذراعها.

- أتريدين مساعدة في ذلك؟

- آه لا. شكراً على كل حال. فأنا أنهي تعرية الجدران الآن.

بدت عليه الحيرة.

- لماذا تفعلين ذلك؟

- لأنني سأبدأ عملاً جديداً قريباً. ولهذا جئت الآن لأغلق المتحف لفصل الشتاء. وبما أنه لا يمكنني أن أفعل ذلك والطفلة معي، طلبت من ليزا أن ترعاها.

سألها كعادته: «ما هو العمل الجديد؟».

حوّلت عينيها عنه.

- ظننت أن دومينيك أخبرك.

حك صدره غائب الذهن.

- منذ فترة لم نعرف شيئاً لا أنا ولا زين، فقد أخبرنا أنه مضطر للسفر إلى أوروبا لمسألة عائلية خاصة. ظننت أنه عاد إلى البيت الآن.

دومينيك في فرنسا؟

زاد الفراغ في قلبها. هذا لا يعني سوى شيء واحد. لقد أراد أن يخبر أمه عن طلاقهما شخصياً.

- كان دومينيك هنا منذ اكثر من أسبوع، أمضى ليلة ثم رحل في الصباح، أظنه توجه مباشرة إلى مطار «دينفر».

أخذت عينا آليك تتأملانها باهتمام بالغ.

- أرجو ألاّ تسيئي فهم كلامي، ولكن يبدو عليك وكأنك عانيت كثيراً، ما الذي حدث يا هانا؟ يمكنك أن تتحدثي إليّ، اطمئني فلن يعلم أحد بكل ما تقولينه.

كانت تعلم ذلك ولم تكن هناك فائدة من إخفاء الحقيقة عنه، فهو أحد أفضل أصدقاء دومينيك وسيعلم بالأمر في أقرب وقت.

- إننا سنطلّق. ذهبت لرؤية المحامي منذ أيام.

- آه، كلا.

كل ما عرفته بعد ذلك، هو أنه أحاطها بذراعيه، وأطلق عطفه العنان للطوفان. فوجدت نفسها تخبره بكل شيء، فيما راح يربّت على ظهرها مهدّئاً.

عندما انتبهت أخيراً إلى الانفجار العاطفي الذي حدث لها، ابتعدت عنه وجففت دموعها بيديها.

- آسفة لانهياري بهذا الشكل.

ولتداري ارتباكها، أخذت توضب الاغراض في صناديق الكرتون، التي أحضرتها من حانوت البقالة. فبادر إلى مساعدتها وهو متجهم الوجه.

- دومينيك أحمق لعين، ولكن كل هذا لأنه مغرم بك للغاية، سيستيقظ قريباً، يا هانا.

- أنت لا تعلم هذا.

وضع يديه على أعلى ذراعيها ليمنعهما من الارتجاف.

- بل أعلم، فأنا أعرف قلبه. وأنا الآن أعرف قلبك. هيا بنا، ننهي العمل ثم آخذك إلى العشاء.

- لن أقول لك لا.

وتنهدت بضعف، فقال: «هذا جيد».

ابتسم لها مشجعاً قبل أن يملأ صندوقاً ويبدأ بآخر. عندما تناول عدداً آخر من اللوحات ليوضبها، انفجر ضاحكاً فجأة، فابتسمت هانا رغم ألمها

وسألته: «ماذا؟».

- أريد أن آخذ هذه اللوحة لسيارتي. سأثبتها على الباب بالمسامير.

فنظرت هانا إليها وقالت:

- هذه من أحب ما أملك، وأنا أبيع منها الكثير.

- كم تريدين ثمناً لها؟

- يمكنك أن تأخذها مجاناً. بالمناسبة، لماذا لا تعطي زين هذه الخريطة القديمة «لمحطة بريد الجياد السريعة؟» فقد يتأثر بها عاطفياً لأنه من «سان فرانسيسكو».

- أيمكنني أن آخذ واحدة منها أنا أيضاً؟

- يمكنك أن تأخذ أي شيء تريده، مع مباركتي.

كانت تشعر بمودة نحو آليك وزين لأنهما صديقا دومينيك، لكنها أدركت اليوم أنهما غير عاديين.

لقد جاء آليك إلى المتحف في أحلك ساعات حياتها. ورغم أنها اعتقدت أن زواجها من دومينيك انتهى، فقد أحبت آليك لأنه طلب منها ألا تستسلم لهذه الفكرة.

وسرعان ما أنهيا العمل. وأخيراً وقفت تقول: «أظن أننا انتهينا، شكراً لك».

- بكل سرور، هل أخرج هذه الصناديق إلى سيارتك؟

- إن كنت لا تمانع، أشكرك جداً. هاك المفاتيح.

وبينما كان في الخارج، رنّ هاتفها الخلوي. وأخذ قلبها يخفق بعنف، دومينيك؟

رفعت الهاتف إلى أذنها وهي تدعو الله أن تسمع صوته.. فقد طال شوقها...

***

١٠ - المحنة الصعبة

- مرحباً، يا عزيزتي، أنا كولين!

اتسعت عينا هانا دهشة: «كولين! كيف الحال؟».

- بأتم خير، لكن هناك مشكلة وأنا أستدعي الآن «فرقة النجدة».

- ماذا حدث؟

- ولد تائه في «منطقة الجبال» قرب «ليبي فلاش ويلد فلاور تريل»، سأخبركم بالتفاصيل حين نجتمع، متى تصلين إلى مزرعتي؟

- سأكون عندك حالما أجد من يجلس مع أليزابيث.

- كنت أعلم أن بإمكاني الإعتماد عليك، يا عزيزتي.

في اللحظة التي انتهت فيها المكالمة، أخبرت آليك أن عليهما تأجيل العشاء. بعد أن أخبرته عن تلك الحالة الطارئة، قال لها إنه سينهي العمل ويغلق المتحف، ويمكنهما أن يتقابلا في فندق «إكزكيوتف إن» مساءاً أو أن يتحدثا في الصباح.

ودّعته وأسرجت «سينامون»، ثم ثبتت العربة في السيارة وحمّلت الفرس فيها.

في طريق عودتها إلى لارامي، اتصلت بليزا لتخبرها بما حدث. كانت على وشك أن تقول إنها ستتصل بإيلين لتطلب منها رعاية أليزابيث في غيابها، لكن ليزا قاطعتها وتطوعت للبقاء بجانب الصغيرة طالما هي بحاجة إلى ذلك.

بعد أن ارتاحت من كافة النواحي، ذهبت بسيارتها إلى مزرعة كولين

حيث عقد الاجتماع.

ـ ليس لدينا وقت نضيّعه.

سمعت الرئيسة تقول: «حالما نصل إلى هناك، سأمسك بهاتفي الخليوي وبهذا يمكننا أن نبقى على اتصال. سأحوّل أي خبر إلى الشخص المسؤول عن البحث والإنقاذ، وكذلك إلى حراس الغابات. هناك غابة تحترق، وثمة دخان كثيف. لا أريد أعمالاً حمقاء، إننا نبحث عن طفل في الخامسة اسمه «طوني بويل» من فلوريدا. لم يأت طوني إلى الجبال من قبل، وقد تسكع بعيداً عن مكان أسرته في نزهتهم هذا الصباح، وتملك الذعر والديه للغاية.

إنه معتدل الطول والبنية، ذو شعر وعينين بنية اللون، وهو يرتدي بنطلوناً من الكتان وقميصاً أزرق. حسناً، هذا كل شيء، فلنبدأ».

راعها تصوّر أن أليزابيث هي التائهة في البراري، وكانت هانا تعلم أن كل أمّ تشعر بالشيء نفسه. من المؤكد أن بإمكانهن العثور على الطفل مع كل هذا العون.

ولكن بعد نصف ساعة داخل منطقة التخييم في الجبال، لم تعد هانا تشعر بهذه الثقة، فالغيوم المنخفضة والدخان جعلا الرؤية ضعيفة.

ـ سنبحث بعيداً عن المخيم. يجب أن تفصل بين الامرأة والاخرى عشرون ياردة. فلنبدأ.

صفّرت كولين فحثت كل واحدة حصانها.

نظرت هانا إلى ساعتها، وكانت قد قاربت الثالثة. ما زال أمامهن خمس ساعات من النهار.

ـ هيا يا «سينامون» دعينا نرَ ما يمكننا فعله.

فتشّن منطقة واحدة في ساعة، ثم أخرى، بين أشجار الصنوبر والتّنوب، ومرت ساعتان أخريان، لكن دون جدوى. وأحنت الفرس رأسها لتشرب من جدول جبلي، عند ذلك خطرت لهانا فكرة.

تقدّمت من ويلما: «أنا سأسير مع الجدول إلى سفح الجبل، الأطفال الصغار يعشقون تعويم الأشياء على الماء. ربما هذا ما فعله تومي».

ـ الأفضل ألاّ تفعلي ذلك، يا هانا، فالدخان يتكاثف، لن تقبل كولين.

ـ لن تعلم بذلك إذا لم تخبريها أنت.

حدقت المرأتان ببعضهما البعض بشدة: «سآتي معك».

ـ لا، لا بد أن تغطي إحدانا منطقتك ومنطقتي الآن.

ـ معك حق. سأقوم أنا بذلك، ولكن لا تغيبي أكثر من نصف ساعة. بعد ذلك، عودي إلى المخيّم.

ـ سأفعل.

ـ حظاً سعيداً.

***

عندما دخل دومينيك، المرهق عاطفياً ونفسياً، الطريق المؤدي إلى الشقة، دهش لرؤية شاحنة قديمة تقف مكان سيارة هانا. لم يكن لسيارتها الصغيرة أثر.

نزل من سيارته مقطب الجبين وصعد الدرجات ركضاً. تملكته الدهشة عندما فتح الباب ليجد أليزابيث تجلس على الأرض راضية مع نسخة أصغر من هانا، ليزا... وأسرعت ليزا بالوقوف على قدميها.

سبق أن رأى صورتها، لكن رؤيتها شخصياً جعلته يدرك مقدار الشبه الكبير بينها وبين زوجته. فالإثنتان تتمتعان بجمال صارخ، ولا عجب إن ظن أن الطفلة ابنة هانا عندما رآها لأول مرة.

ـ المعذرة لأنني أخفتك يا ليزا، أنا دومينيك جيرود، زوج هانا.

ـ أعرف ذلك.

لقد ورثت الطفلة ابتسامتها.

ـ يبدو أن أليزابيث تعرفك أيضاً.

ذاب قلبه وهو يرى كيف اندفعت ابنته المحبوبة نحوه بشوق.

ـ صغيرتي.

ثم همس في عنق الطفلة الطيب الرائحة: «ها قد كبرت في غيابي! أتعرفين كم اشتقت إليك؟».

وقبل خديها حتى أخذت تضحك بصوت مرتفع: «أقسم ألاّ أبتعد عنك إلى هذا الحد بعد الآن».

كان يعلم قبل أن يغادر «يومينغ» أن أهم ما لديه في العالم هو هنا في «لارامي». لكن عزم هانا على الطلاق منه جاء سريعاً ومدمّراً إلى حد أنه خشي أن تكون جادّة في ذلك.

إزاء حزنه هذا، استقل الطائرة إلى «أنتيب» ليكون مع شقيقته، فهي الوحيدة التي تتفهم هواجسه. وساعدته أحاديثهما الطويلة على التخلّص من اللعنة السوداء المروّعة التي تحيط بأسرتهما.. تلك التي زرعت الحزن في قلبه منذ المراهقة.

قال له جان جاك إنه من الأفضل أن يعود إلى بيته بأسرع وقت ليركع أمام هانا وينسى كبرياء أسلافه.

كان دومينيك على أتم الاستعداد ليقوم بذلك، فقد وجد، في الأسابيع الماضية، أن الحياة لا تعني شيئاً من دونها، والتفت إلى ليزا: «أين أختك؟».

ـ لقد اعتنيت بالطفلة بينما ذهبت هانا لتقفل المتحف اليوم. وهناك، تلقت مكالمة من «فرقة النجدة»، حول ولد تائه وحريق في الغابة. لم تأت هانا إلى البيت بعد، أخبرتها أنني سأبقى مع أليزابيث طوال مدة غيابها.

فشعر دومينيك بالغثيان لدى سماع هذه الكلمات: «هل هناك رقم هاتف لأتصل بها؟».

ـ الأفضل أن تتصل بالشرطة أو بفرقة الإطفاء للاستعلام، قالت هانا إن الجميع خرج للبحث عن الصبي.

أخذ التوتر يتملكه: «هل هذا عمل معتاد بالنسبة إلى «فرقة النجدة؟».

فأومأت: «إنهم يساعدون عند الطوارىء. لقد تدرب البعض، مثل هانا، على الخدمة كمتطوعات مع فرقة مكافحة حريق الغابات».

ـ وهل تفعل هانا ذلك؟

انفجر عندما ملأت رأسه صورة مرعبة.

ـ قبل أن أكلفها بمشاكلي، كانت تعيش حياة محرّرة، ليتك رأيتها وهي

تركب جواد «البرونكوس» الصغير الحجم أو «السكي» المزلج الخشبي المتعرج، أو تجذف الزورق الجلدي في المياه، لأدركت أنها تقوم بكثير من الأشياء المخيفة. لعلها لم تخبرك بها لأنها متواضعة، هانا ليست مثلي على الإطلاق.

عند ذلك بلغ قلقه على هانا الذروة.

ـ ليزا، هل لديك مانع من رعاية أليزابيث لمدة أطول؟ عليّ أن أذهب للبحث عن زوجتي.

ـ ستيف يزور أهله في «غراند جانكشن». يمكنني أن أمضي الليل كله هنا إذا كان هذا ضرورياً. أعلم أنك على عجلة من أمرك، لكنني أريد أن أشكرك للمال الذي أرسلته إلينا. كان هذا سخاءً كبيراً منك غيّر أحوالنا تماماً.

ـ هذا من دواعي سروري.

وقبل دومينيك الطفلة مرة أخرى وأجلسها على الأرض: «سأعود، يا حلوتي».

***

ـ تومي.. تومي بويل؟ إذا كنت تسمعني فاصرخ بأعلى صوتك.

تابعت قوائم فرس هانا الواثقة مسيرها على طول الجدول، تارة في الماء وتارة على العشب. كانت رائحة الدخان تزداد، بعد خمس دقائق سيمنعها الظلام من متابعة البحث.

راحت تتوقف في كل ثانية لتصغي إلى أي حركة، وكانت الغابة تموج بالأصوات، ولكن لا وجود لجنس بشري، فتنهدت بقنوط. ليس أمامها سوى العودة إلى المخيم، لعلهم عثروا عليه.

قد يكون هنا في مكان ما، أخذت تناديه مرة بعد أخرى بانتظام، وتنتظر جواباً. في منتصف الطريق، وقفت الفرس لتشرب مرة أخرى، عند ذلك سمعت صوتاً مختلفاً: «تومي؟ هل هذا أنت؟».

ـ ماما.

جاءها الصوت الطفولي الخائف على بعد ياردات عن يمينها، الحمد لله.

ـ أنا اسمي هانا، جئت لآخذك إلى أبويك.

ـ رجـ.. رجلي تنزف.

ـ لا تخف، سأعتني بك. استمر في الحديث لكي أعثر عليك.

ـ هل ستصل النار... إلى.. إلينا؟

فقالت كاذبة: «هذا دخان فقط، النار بعيدة. معي حصان وسنذهب من هنا في دقيقة فقط، والآن أستطيع أن أراك».

كان الصبي جالساً تحت شجرة صنوبر ضخمة.

قفزت من فوق سينامون وركضت إليه. كان الدم ينزف من جرح بليغ في أسفل ساقه حيث تمزق سرواله، فخلعت هانا بلوزتها وربطت بها الجرح لتمنع سيلان المزيد من الدم. ثم حملته ووضعته على ظهر الفرس قبل أن تجلس خلفه.

ـ سنرحل الآن، يا تومي.

أصبحت النار قريبة جداً، وحثت الفرس على الركض بأسرع ما تستطيع في الغابة الكثيفة، ثم أخرجت هاتفها الخليوي.

ـ كولين؟ أنا هانا، لقد وجدت الصبي. لديه جرح بليغ في ساقه وقد نزف بعض الدم، لكنه بخير. إننا نسير إلى أول الجدول على بعد عشر دقائق من المخيّم.

ـ هذا جيد، يا حبيبتي، ولكنك لن تتمكني من اجتياز ذلك الطريق. لقد تغير اتجاه الريح واقتربت النيران كثيراً. هل يمكنك المجيء، من حيث أنت الآن، أي من طريق النار القديم باتجاه الشمال؟

ـ نعم، على ما يبدو الآن، على الأقل.

ـ سنقابلك هنا بعد دقائق.

ـ هل سمعت هذا، يا تومي؟

سألته هانا ذلك وهما يتجهان إلى الشمال. لكنه لم يجب، ربما كان في حالة صدمة.

ـ حسناً، يا سينامون، أنا أعتمد عليك في أخذنا من هنا.

وبتربيت من يدها على جانب الفرس، انطلقت هذه. أصبح التنفس صعباً بسبب الدخان.

حاولت هانا أن تتذكر القواعد التي تعلّمتها، أثناء التدرب على الإطفاء، عن تجنب الذعر. لكنها لم تتذكر واحدة منها. كانت تريد دومينيك، وتحلم به، لأنه يجعل كل شيء على ما يرام دائماً.

***

توقف دومينيك عند اثنين من حراس الغابات يسدّان الطريق الجبلي. وبدلاً من أن يبتعدا عن طريقه، تقدما من سيارته الجيب.

ـ نأسف يا سيدي، لكن السيارات غير مسموح لها بعبور هذه النقطة بسبب النيران.

فصرخ دومينيك: «أرجوك، قالوا لي في المخيم إن زوجتي على ذلك الجبل».

رأى ألسنة النيران تدمّر مساحة كبيرة من الغابة في سفح الجبل. يا إلهي.. إن حدث لها شيء..

ـ إننا نفهم مشاعرك، ولكن هذا لحمايتك، إبق في الخلف ودع رجال الإطفاء يقومون بعملهم.

تمتم بسيل من الشتائم بلغته، ثم قفز من سيارته وأخذ يركض.

ـ هاي.. لا يُسمح لك بالذهاب إلى هناك.

لكن دومينيك لم يصغ وتابع الركض بين صف طويل من عربات الطوارىء على جانبي طريق تُرابي ضيّق، وملأ الدخان خياشيمه.

نزلت مجموعة من طاقم الطوارىء من شاحنة واحتشدت على بعد ياردات قلائل، فأمسك واحداً منهم بكتفه وسأله: «ألم يظهر أثر لزوجتي بعد؟ إنها تحمل معها الصبي التائه».

ـ لا.

فتملكه الذعر لهذا الجواب وتركه ثم أخذ يهبط المنحدر وهو يصرخ

بأعلى صوته: «هانا».

ولكن قبل أن يناديها مرة أخرى، كان رجلان يشدانه إلى الخلف.

ـ لا يمكنك أن تنزل إلى هناك. فهو خطر جداً، لا بد أن تصل زوجتك في أي وقت.

قاومهما فتغلبا عليه. اغرورقت عيناه بالدمع وهو يدعو الله: «يا إلهي، لا تأخذها مني الآن. هانا... هانا!».

***

لا بد أنها فقدت وعيها، فدومينيك ليس في «لارامي». لكن الصوت الذي يناديها في الغسق يشبه صوته.

ـ أنا أراك، يا حبيبتي، اصعدي فقط خطوات قليلة على هذا المرتفع.

ولكن هانا لم تسلم بالأمر حقيقياً إلا حين قفزت الفرس بقوة على الطريق، وشعرت بالصبي ينزلق بعيداً عنها، ثم بجسمها ينجذب من السرج إلى ذراعين مألوفتين.

إنه دومينيك، بإمكانها أن تميّز جسمه في أي مكان، ورائحته وضربات قلبه القويّة.

حملها وكأنها طفلة وهو يهمس باسمها طوال الوقت.

وعندما سمعت كلمة «سيارة إسعاف» تشبثت بعنقه بعنف: «لا أحتاج إليها».

ثم صرخت وهي تسعل: «الصبي مصاب، وسينامون بحاجة إلى عناية».

فسمعته يقول بحرارة: «الحمد لله. إنهما تحت العناية، يا حبيبتي».

منعها الدخان الخانق من أن تتحدث، لكنها تضرعت قائلة: «أرجوك لا تدعني أذهب إلى المستشفى، خذني إلى البيت».

وبشكل سحري، حملها مسافة طويلة ثم وضعها في سيارته الجيب.

نظرت إليه بذهول وهو يخلع قميصه المقفل ويلبسها إياه. عندها تذكّرت أنها خلعت بلوزتها وربطت بها جرح الصبي.

ـ دومينـ...

فقال بحدة: «لا تتكلمي، يا هانا، حتى أخرج من هذا الدخان».

لوّح له حراس الغابات بأيديهم بينما استدار بالسيارة ثم هبط الطريق الجبلي، وعندما وصلا إلى المخيّم، وقف بجانب الطريق لحظة.

ـ خذي يا حبيبتي، إشربي هذا.

واحتضن رأسها ليساعدها على ذلك.

ـ آه، ما ألذ هذا الماء.

جرعته إلى آخر قطرة. ولاحظت هانا من خلال جفنيها المسترخيين التوتر على ملامحه والتصلب في رقبته.

ـ بعد هذه المحنة المروّعة التي مررت بها، أنت بحاجة إلى الراحة والعناية.

إنه دومينيك، الرجل الذي أحبّت. بدا، من دون قميصه، كذلك المساء في بركة سباحة الفندق حين برز من الماء كأحد آلهة الإغريق القدماء.

تأوهت للذكرى.

ـ هانا؟

صرخ بخوف لا يُصدّق، نازعاً خصلاتها عن جبينها. لم تره من قبل بهذا الضعف. كانت مفاجأة لها.

ـ أنا بخير يا دومينيك.

وأضافت وهي تسعل: «كل ما في الأمر أن الماء لذيذ الطعم، أرجوك.. دعنا نبتعد من هنا».

ودمعت عيناها.

ـ أريد أن أكون وحدي معك.

فتمتم بصوت خافت: «هذا كل ما أريده أنا».

وأدار المحرك، فبدا وكأن للسيارة أجنحة. بعد وقت قصير أحسّت أن الجبال وراءهما لأن الهواء لم يعد يحمل رائحة الدخان اللاذعة. يبدو أن رئتيها لم تستطيعا الحصول على ما يكفي من الأوكسجين.

لكن كل نفس من الهواء النقي كان ينعشها قليلاً، ويجعلها تستوعب أن دومينيك عاد فعلاً إلى «لارامي».

- لا أريد أن أعلم إلى متى ستبقى. لكن عدني بأنك لن تتركني الليلة.

انهمر من بين شفتيه سيل من كلمات غير مفهومة: «سأبقى هنا طوال الوقت الذي تريدينه، يا هانا».

أغمضت عينيها بشدة وشعرت بغصة: «إنه وقت طويل، ولا يحق لي أن أطلبه منك».

- بل لديك كل الحق، فأنت زوجتي ولا أريد سواك.

- هل ستثق بي مرة أخرى؟

كانت تجاهد لتتنفس لكن ليس بسبب الدخان.

- بعد الذي أخبرتني به عن أمل أبيك في أن أكون امرأة لا يهمها سوى الحصول على المال منك وبذلك يشمت بك، أدركت أنك تمضي حياتك خائفاً من ألاّ تحبك امرأة لأجل نفسك. ولا عجب في أن تشعر بالغدر حين وجدت تلك المجلة.

ودفنت وجهها بين يديها، وهي تضيف: «لقد قلبت الأمر في ذهني مرات عدة، لكنني في كل مرة كنت أتمنى لو أنك لا تملك كل ذلك المال. ولكن لولاه، لما تعرفنا إلى بعضنا البعض. لذا أنا أحب أموالك، وأشكر الله لأنك هنا. لا أريد أن يتغير فيك شيء».

مسحت عينيها، ورفعت رأسها: «سامحني لأنني آلمتك يا دومينيك».

وقفت سيارة الجيب فجأة، وقبل أن تنتبه إلى ذلك، وضع ذراعه حول ظهر مقعدها، وأحاط وجهها بيده الثانية. ثم قال وهو يرغمها على النظر إليه: «أنا من عليه أن يطلب السماح».

لم تصدق وهي ترى الدموع في عينيه.

- لقد عدت إلى «لارامي» لأرجوك أن تصغي إليّ وتمنحيني فرصة أخرى لأثبت لك أنني الزوج الذي أردته. المخطىء هو أنا لأنني لم أخبرك عن حقيقتي في أول مرة سألتني فيها كيف أكسب عيشي. لكن الطريقة الغريبة

التي تعارفنا بها، والرباط الفوري الذي نشأ بيني وبين الطفلة، سببا الافتتان الذي حدث بيننا. إن تعرّفي إلى امرأة فاتنة الجمال ومثيرة مثلك، بعد النساء اللاتي عرفتهن، منعني من الحديث عن نفسي. لكنني لم أدرك مبلغ افتتاني وانجذابي إليك، إلا بعد أن حسبت أن حبك لي غير حقيقي.

- عانيت كثيراً من الآلام وخيبات الأمل في حياتي، لكنني لم أعرف قط مثل تلك المشاعر الهائلة التي صاحبت الصدمة التي منيت بها. اعتقدت أنك لا تحبينني، شعرت وكأن شخصاً طعنني في قلبي ثم تركني لأموت.

- آه، يا حبيبي.

وأخفت وجهها في عنقه، بينما تابع يقول: «في تلك الليلة قبل زفافنا، جلست قرب أليزابيث ساعات طويلة بدون حراك، كحطام كأس بلورية تناثرت في كل مكان، وشعرت كأن قطعاً من حبنا الكبير تكومت حولي. بدا لي حبنا أشبه بشظايا لا يمكن ترميمها أبداً، شظايا تمثل عظمة وروعة حب ظننته قدرنا المكتوب».

احتضنته بشدة لتمنع ارتجافه، بينما تابع قائلاً: «هل يمكنك أن تغفري لي قسوتي؟ يا إلهي.. يا هانا! أتراني قتلت ذلك الشيء الثمين الذي بيننا؟ أحبك يا حبيبتي».

كان دومينيك بحاجة إلى أكثر من الكلمات، فما كان من هانا إلاّ أن ضمّته بشدة، مفرغة كل مشاعر الجسد والروح في تلك الدوّامة من السعادة اللانهائية.

لم يعد للوقت حساب عندما أخذا يشبعان شوقهما وحنينهما لبعضهما. كان يتأوه كلما عانقته، ثم أخذ يبادلها العناق مما بعث فيها أحاسيس جعلتها تتضرع للمزيد.

- هانا..

كان صوته متهدجاً بعد أن خلّص نفسه أخيراً من بين ذراعيها، وقال: «لا يستطيع رجل أن يتحمّل أكثر من هذا، لا تقتربي مني حتى نصل إلى الشقة، أريدك أن تعديني بذلك».

كان صدره يعلو ويهبط، لعنف مشاعره، ثم تحرّك بالسيارة، فأدركت مدى تأثيرها عليه.. عادت تستقر في جلستها بعيدة عنه وعلى شفتيها ابتسامة ماكرة. بعد دقائق ستكون مع زوجها طوال الليل، وسيتلقى الجواب الذي يتشوّق إليه حتى يتخلّص من عذاباته.

***

استيقظت هانا وشعرت بثقل غير مألوف على ساقيها وصدرها. بدا دومينيك مستغرقاً في نوم عميق، ولكن يده كانت مشتبكة بشعرها. في ضوء الصباح الضبابي لم تستطع أن تميّز إلا شكل أنفه وفمه وذقنه.

ما عرفته الليلة من حب، فاق كل تصوراتها. تمنّت أن تبقى بين ذراعيه إلى الأبد، وغمرتها موجات من الحرارة عندما أدركت أن مشاعرها لا يمكن أن تشبع، لكن دومينيك مثلها..

حان الوقت لكي توقظه بدورها، قبل أن تبدأ الطفلة بإحداث شغب.

عرضت ليزا، الليلة الماضية، أن تبقى للعناية بأليزابيث ليتمكن دومينيك وهانا من التأخر في النوم صباحاً، لكن دومينيك جعلها تشعر أنه يريد الانفراد بأسرته. وهكذا غادرت ليزا ووعدتهم بزيارة قريباً.

همست في أذنه بالفرنسية: «صباح الخير يا حبيبي».

وتشوّقت إلى لفظ كلمات المحبة التي يخاطبها بها بالفرنسية فأضافت: «أحبك».

نظرت في عينيه عندما فتحهما، كان اللهب الذي رأته فيهما الليلة الماضية، أعنف وأشد. مد يده يجذب رأسها إليه وقال: «عانقيني لكي أعلم أنك حقيقية».

كانت متلهفة لإطاعته، لكنه سبقها وحملها إلى عالم من الحب لا يعرفه سوى عاشقين مثلهما.

بعد ذلك بوقت طويل، نظر إليها بوجه جامد متزن: «الليلة الماضية، بعد أن علمت أنك ذهبت إلى الغابة لكي تنقذي ذلك الصبي، وعلمت بأنكما في خطر، شعرت بالموت مرة أخرى، عديني بألاّ تقومي بتلك

الأعمال البطولية مرة أخرى، يا هانا. إن قلبي لا يحتمل ذلك».

كان يعني ما يقول، فقد أحست بذلك.

ـ أعدك. إنك من الأهمية عندي بحيث لا يمكن أن أعرّض الأوقات التي نمضيها معاً إلى الخطر.

فقبلها بعمق ثم قال: «عندما استيقظت وأنت معي أدركت أنني لا أريد أبداً أن أستيقظ دون أن تكوني هنا بهذا الشكل. أتظنين..».

ـ نعم، يا حبيبي.

توقعَتْ هذا السؤال: «أريد أن أحبك في كل صباح، أنا أيضاً، وفي الواقع، أنا متلهفة إلى مساعدتك في مشروعك. سنسافر إلى بقية البلاد معاً، فننجز العمل في وقت أقل، ستحب أليزابيث هذا لأنها ستكون مع أبيها على مدى الاربع وعشرين ساعة. أنا أيضاً سيكون بإمكاني أن أحبك وأهتم بك كل ليلة..».

تألقت عيناه: «أنت تعنين ذلك حقاً.. أليس كذلك؟».

ـ من كل قلبي، يا دومينيك.

أمسك بيدها يقبلها: «ماذا بالنسبة إلى دراستك؟».

ـ ما زالت مهمة بالنسبة إلي، ولكن يمكنها الانتظار. هناك شيء أكثر أهمية الآن.

فهمس: «وما هو؟».

ـ العمل لإنجاب أخت أو أخ لأليزابيث. فإن بقيت طفلتنا وحيدة، سوف يفسدها دلالك، وتصبح معاشرتها صعبة. كلما أسرعنا بإنجاب طفل آخر تشغف أنت به، كلما أصبح تغلبها على غيرتها أسهل.

فأشرق وجهه مبتسماً: «أتظنين أنها تحبني إلى ذلك الحد؟».

ـ أرفض الإجابة على هذا السؤال الغبي، إن كنت لا تتذكر كيف ألقت بنفسها بين ذراعيك، فأنا أتذكر.

فقهقه ضاحكاً مما جعلها تهتز هي والسرير: «أظن أن الحركات الاستعراضية لرعاة البقرة جزء أصيل من جينات أسرة كار».

فابتسمت هانا بغموض: «علينا أن ننتظر لنعرف ذلك عندما يصل الطفل رقم اثنين».

فنظر إليها بعاطفة محمومة: «أرجو أن تكوني حاملاً الآن».

ـ أنا متشوقة لذلك أكثر منك.

واختنق صوتها، فقبل عنقها وكتفها.

ـ وعدتني بأن تخبريني بما حدّثت به أليزابيث في تلك الليلة عندما أخذوني إلى المستشفى، إلى متى سأبقى في حيرة من أمري قبل أن أسمع تلك التفاصيل؟

ـ أظن أنني أخبرتك بكل ما تريد معرفته، في منتصف الليل.

ـ أريد أن أسمع التفاصيل مرة أخرى، يا حبيبتي.

ـ ألا تخجل؟

ـ لا، إقتربي أكثر. إنك بعيدة جداً عني.

ـ عليّ، أولاً، أن أقوم بعمل.

فرفع حاجبيه: «ما هو؟».

ـ عليّ أن أقوم باتصال هاتفيّ.

ـ الآن؟

بدا أنه شعر بجرح في كرامته.

ـ نعم، مع الأسف.

مدت يدها بصعوبة إلى الهاتف ثم طلبت رقم الإستعلامات.

ـ أريد رقم فندق «الإكزكيوتيف إن» من فضلك.

نهض دومينيك مستنداً على مرفقه ونظر إليها وفي عينيه سؤال، فرفعت يدها تلامس فمه بإصبعها. كان رجلاً رائع الجمال. تأوهت مبتهجة وهي تقول: «كل شيء خفي سينكشف في وقته، يا حبيبي».

ـ أريد السيد «آليك جارمان» من فضلك، لا أعرف رقم غرفته.

نظر دومينيك إليها غير مصدق: «هل هو هنا في «الارامي»؟».

حالما سمعت صوت صديقه، قالت: «آليك؟ إنه هنا».

واغرورقت عيناها بالدموع فجأة وشعرت بغصة في حلقها: «كنت على حق في كل شيء، لقد جاء دومينيك إلى البيت من «فينس» الليلة الماضية، وهو هنا بجانبي ويريد أن يتكلم معك».

وملأت الدقائق التالية قلب هانا بالبهجة حين أخذ زوجها يتحدّث عن الجوانب المشرقة من عملية الإنقاذ، وكان لا ينفك يعانقها بين جملة وأخرى.

ـ كانت هانا بطلة. ولكن رغم زهوي بها، لن أدعها أبداً تبعد عن نظري مرّة أخرى. وبما أنني غفلت عن قول ذلك، أشكرك أنت وزين لصبركما عليّ تلك الليلة السابقة للزفاف. ما كنت لأستطيع تجاوز تلك المحنة لولاكما.

ـ ماذا؟

صرخت هانا بذلك بلطف، متسائلة عما فعله بالضبط بعد أن غادر غرفة أليزابيث.

لمعت عيناه بغموض: «هانا هي شريكة الآن معنا في مشروع القطار السريع. ولكننا أولاً سنذهب لقضاء شهر عسل طويل متأخر عن موعده. لقد بدأ، في الحقيقة الليلة الماضية، ولهذا سأقفل الخط الآن. أخبر زين أنني سأتصل به في ما بعد».

وتمتم وهو يعانقها بينما يده تجاهد لوضع السماعة في مكانها: «بعد وقت طويل».

***